الباب الأول

مصادر النمو

The Sources of Growth

● فرضية الثروة ● الملكية ● العقل● رأس المال● القوة والسرعة والضوء● مُركب النمو

لا يتحقق الرخاء نتيجة لامتلاك السدود الكهرومائية أو الطرق أو أسلاك الهاتف أو المصانع أو الأراضي الزراعية الخصبة أو حتى الكميات الكبيرة من النقود فحسب. وكذلك لا يمكن استزراع الرخاء من أمة لأخرى بمجرد نقل المكونات الرئيسة للبنية التحتية الاقتصادية. ففي كل الحالات، إلا في حالات استثنائية للغاية، لا يرتبط الرخاء الوطني بالأشياء المادية أو المصادر الطبيعية، بل بالمؤسسات التي توفر للبشر إطاراً يفكرون فيه ويتفاعلون وينفذون الأعمال والمشروعات. يصف هذا القسم تلك المؤسسات، ويعرض كيف ترتبط إحداها بالأخرى.

ثمة أربع مؤسسات تبرز كشروط أولية للنمو الاقتصادي:

- حقوق الملكية الآمنة، ليس فقط للملكية المادية، بل أيضاً للملكية الفكرية وملكية الشخص لنفسه: الحريات المدنية.
- إجراء منظم لفحص العالم وتفسيره: المنهج العلمي.
- مصدر تمويل متاح للجميع لتطوير الاختراعات وإنتاجها: الأسواق المالية الحديثة.
- القدرة على التوصيل السريع للمعلومات الحيوية ونقل الناس والسلع.

يعرض الفصل الأول المنطق الكامن وراء النموذج السابق رباعي العوامل، ويراجع واقعه المؤسف في مطلع العصر الحديث. وتقدم الفصول من الثاني إلى الخامس التطور التاريخي لهذه العوامل الأربعة تباعاً. ويناقش الفصل السادس الاعتماد المتبادل بين العوامل الأربعة. على أن بعض القصص الواردة هنا ستكون مألوفة لمعظم القراء، خاصة تاريخ العقلانية العلمية، بينما لن يكون غيرها كذلك، مثل جذور حقوق الملكية الحديثة في العالم القديم. وستمكننا المعرفة العملية بالعوامل الأربعة من فهم كيف اغتنى العالم ومتى ولماذا؟

obeikandl.com

الفصل الأول

فرضية الثروة

A Hypothesis of Wealth

لقد أنتجت الطبقة البرجوازية من القوى الإنتاجية، في أثناء حكمها على مدى تلك المائة سنة القصيرة، ما لم تنتجه كل الأجيال السابقة مجتمعة.

كارل ماركس، البيان العام للحزب الشيوعي

ثمة إغراء طاغي لأن نرثي ما آلت إليه حالة العالم، خاصة حين نركز على مآسي البشرية، ممثلة في النزاعات الدامية، والفشل وانعدام الأمانة، والعودة الأخيرة للكراهية العرقية والدينية القديمتين اللتين تتخللان قصة البشر.

ولعل المثال الحي لهذا التشاؤم العصري هو الصحفي أنتوني لويس Antony Lewis، الذي سُئل في نهاية حياته المهنية الطويلة والمميزة عما إذا كان العالم قد وصل نقطة أفضل منها حين بدأ في تغطية أحداثه قبل نصف قرن، فقال:

لقد فقدت إيماني بفكرة التقدم. أقصد التقدم بالمعنى الذي كان يستخدم في بداية القرن العشرين، أي الاعتقاد بأن البشرية تصبح أكثر حكمة وأفضل حالاً وما إلى ذلك، إذ كيف يمكن أن نؤمن بذلك بعد أحداث رواندا والبوسنة وعشرات الأماكن الأخرى التي شهدت أهوالاً من هذا النوع؟[1]

إن المشكلة هي أن المعيار الشخصي الذي يقيس به السيد لويس تقدم البشرية مرتفع للغاية، وهو أن البشرية لم تنجز الكمال الأخلاقي، كما عرّفته جامعات رابطة اللبلاب[1] والأقسام التحريرية بجريدة نيويورك تايمز. ربما يغيب عن لويس أننا نستطيع

---

(١) رابطة اللبلاب Ivy League اتحاد رياضي يضم ثمانية من مؤسسات التعليم العالي في شمال شرق الولايات المتحدة، تعتبر من أرقى الجامعات الأمريكية التي يرتادها أبناء النخبة، ويشير إجمالاً إلى هذه =

فعلاً أن نقيس رفاهية البشرية، وبطريقة ممتازة. فعلى خلاف انطباعات لويس المتشائمة، كان النصف الثاني من القرن العشرين أقل دموية بكثير من نصفه الأول. وكذلك أخذت أعداد سكان العالم الخاضعين للحكم الشمولي والمعرضين للإبادة الجماعية والمجاعة والحروب والأوبئة تتراجع باطراد على مدى القرنين الماضيين، وقد حدث معظم التحسن في نصف القرن الأخير الذي جعل لويس مكتئباً إلى هذا الحد.

ولك أن تعرف أنه في الفترة من عام ١٩٥٠م إلى عام ١٩٩٩م ارتفع متوسط العمر المتوقع في العالم المتقدم من ست وستين سنة إلى ثمان وسبعين سنة، وارتفع في العالم النامي من أربع وأربعين سنة إلى أربع وستين سنة. وطول العمر المتوقع، الذي كانت للغرب الريادة فيه، لم ينتج عن ضربة حظ استثنائية، وإنما كان الإنجاز الأكبر للسنوات الخمسين الماضية. ولك أن تعلم أيضاً أن الناتج المحلي الإجمالي GDP العالمي الحقيقي لكل فرد- مقدار السلع والخدمات المعدل ضد التضخم التي أنتجها الإنسان العادي- تضاعف ثلاث مرات تقريباً على مدار نفس الفترة، وأن الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي لكل فرد في المكسيك في عام ٢٠٠٠م كان أكبر كثيراً من أكبر ناتج محلي في العالم في عام ١٩٠٠م، وهو ناتج بريطانيا العظمى آنذاك. وإذا كنت من النوع الذي لا يثيره التقدم المادي الذي حققته البشرية في السنوات الخمسين الأخيرة، كما يقاس بالدولارات والسنتات، فاعلم أن أي مقياس ترتضيه للتقدم الاجتماعي - معدلات وفيات الأطفال أو معرفة القراءة والكتابة أو الوفيات أو مستويات التعليم- قد تحسن كثيراً في كل أنحاء الكوكب، باستثناء بقع قليلة لا تزال تغط في النوم[٢].

- المؤسسات كمجموعة، وهي جامعات براون وكولومبيا وكورنيل ودارتماوث وهارفارد وبرينستون وبنسلفانيا ويل، وقد استمد شهرته من المنافسات بين الفرق الرياضية للكليات التي بدأت في عام ١٩٥٤م [المترجم].

الإفلات من الفخ

يترنح العالم الحديث، على ما يبدو، تحت عبء الزيادة السكانية المستمرة، حيث يضيف كل عام ملايين من الأفواه الجديدة التي تحتاج إلى طعام. كانت الأرض، عند ميلاد المسيح، تعيل ما يربو قليلاً عن ٢٥٠ مليون شخص، زادوا بحلول عام ١٦٠٠م إلى حوالي نصف مليار، ثم مليار في حوالي عام ١٨٠٠م، ثم مليارين بحلول عام ١٩٢٠م، ثم ثلاثة مليارات في عام ١٩٦٠م. وفي الوقت الحاضر يعيش أكثر من ستة مليارات نسمة على الكوكب[٣]. يعطي الازدحام المتزايد للحياة الحضرية، خاصة في العالم الثالث، انطباعاً بأن سكان العالم كانوا ينمون بمعدل أكبر من ١,٨٥٪ سنوياً في نصف القرن المنصرم.

يعد الزحام على كوكبنا ظاهرة جديدة، فهو أحد نتائج الرخاء الذي استجد على العالم. فقبل العصر الحديث كانت المجاعات والأمراض والحروب تسحق الميل الإنساني للتكاثر. وعلى مدار المليوني سنة الأولى من التاريخ الإنساني لم يكن نمو السكان يتجاوز كثيرا معدل ٠,٠٠١٪ سنوياً. وبعد ظهور الزراعة، قبل ١٠٠٠٠ سنة، زاد معدل نمو السكان إلى حوالي ٠,٠٣٦٪ سنوياً، ثم إلى ٠,٠٥٦٪ سنوياً في القرن الأول بعد الميلاد. وبعد عام ١٧٥٠م ارتفع هذا المعدل إلى ٠,٥٪ سنويا، ثم تجاوز ١٪ في أوائل القرن العشرين[٤].

تحيل اقتصادات الزيادة السكانية التي تبعث على الاكتئاب، في الأزمنة الحديثة، آلياً إلى توماس مالتوس Thomas Malthus. ولد مالتوس في عام ١٧٦٦م لأسرة تنتمي إلى طبقة النبلاء، وتخرج من كامبردج في عام ١٧٨٨م بدرجة امتياز. تأثر مالتوس، كشأن غيره من خريجي الجامعة النابهين في إنجلترا وأسكتلندا عصر ذاك، بعلم "الاقتصاد السياسي" الجديد الذي يرجع إلى آدم سميث، وربما لذلك كرس حياته للدراسة الكمية للبشر.

كانت إنجلترا في السنوات التكوينية لهذا الاقتصادي الطموح مثالاً للمجتمع الهويزي[٢] والسميثي[٣] بنفس القدر، حيث كانت تشهد نقصاً شديداً في المواد الغذائية، وليس مجاعة، خاصة في أيرلندا المجاورة. ومن ذلك أنه في عامي ٩٦-١٧٩٥م وأعوام ١٨٠١-١٧٩٩م اجتمع على إنجلترا الحرب والحصاد السيئ ليدفعا احتجاجات الطعام[٥]. كان السبب الأساسي لنقص الطعام واضحاً لمالتوس: "عدد السكان أكبر كثيراً من قدرة الأرض على إنتاج أرزاق البشر". فالبشر يتكاثرون بسرعة، بينما تخضع الزراعة لقانون تناقص الغلة[٤]. ولذلك فإن الميل الطبيعي هو أن يتزايد البشر بسرعة أكبر مما يستطيعون إنتاج الطعام. (المفهوم الشائع لأطروحة مالتوس هو أن السكان يتزايدون بمتوالية هندسية، بينما يتزايد إنتاج الطعام بمتوالية حسابية).

لم تقتصر "الكوابح الإيجابية" الشريرة عند مالتوس على الشرور الكلاسيكية الثلاثة - المجاعة والطاعون والحرب- وإنما تضمنت كذلك عدداً من الشرور الأقل خطراً: شروط العمل غير الصحية والعمل المضني والإسكان المزدحم وغير الصحي وتنشئة الأطفال السيئة. فإذا أصبح الطعام وفيراً لفترة قصيرة، تزايد السكان سريعاً. وبعد ذلك بفترة قصيرة ستؤدي الزيادة في المعروض من العمالة إلى خفض الأجور. وذلك بدوره سيجعل أسعار الطعام في

---

(٢) نسبة إلى الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز الذي شدد على أن حالة الطبيعة التي سبقت المجتمع المدني تميزت بـ"حرب الكل ضد الكل" ولذلك دعا إلى وجود دولة قوية أسماها "اللوياثان" أو التنين، وهو اسم أشهر كتبه، ويعد بذلك من أبرز دعاة الاستبداد المَلكي. وصف حياة الإنسان في حالة الطبيعة بأنها "منعزلة ومقفرة وقذرة ووحشية وقصيرة". ويشير النسب إليه إلى هذه المضامين [المترجم].

(٣) نسبة إلى الفيلسوف الاجتماعي ورائد الاقتصاد السياسي الإنجليزي آدم سميث الذي يُعرف بأنه أبو الاقتصاد الحديث والرأسمالية، ومن أشهر أعماله كتاب "بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم" الذي أصبح يُعرف اختصاراً باسم "ثروة الأمم" ويعتبر من أشهر ما كُتب في علم الاقتصاد. ويشير النسب إليه إلى مجتمع واقتصاد السوق الحرة [المترجم].

(٤) يشير قانون تناقص الغلة أو تناقص العوائد الحدية، في الاقتصاد، إلى التناقص المطرد في الناتج الحدي (لكل وحدة) لعملية الإنتاج في حال زيادة كمية عامل واحد من عوامل الإنتاج وثبات عوامل الإنتاج الأخرى [المترجم].

غير متناول الناس، ويجعل الزواج أكثر صعوبة، مما يؤدي إلى إبطاء النمو السكاني. عندئذ يؤدي انخفاض الأجور إلى حث المزارعين على استئجار عمال أكثر، مما يؤدي بدوره إلى استصلاح مزيد من الأراضي، وبذلك تبدأ العملية برمتها من جديد بمستوى أعلى قليلاً من السكان وإنتاج الطعام، وتلك هي "الحلقة المالتوسية" الشريرة.

في عالم مالتوس القاسي ينمو إنتاج الطعام لدى الأمة ببطء، وكذلك سكانها، إن كان الأول ينمو أصلاً، لذلك يتناسب مستوى المعيشة عكسياً مع عدد الأفواه المطلوب إطعامها. فإذا تزايد السكان، فلن يكون هناك طعام كافي للأفواه الزائدة. وهنا سترتفع الأسعار وتنخفض الأجور ومستوى المعيشة إجمالاً. وفي المقابل إذا انخفض عدد السكان فجأة، كما حدث في أثناء الطاعون في منتصف القرن الرابع عشر، ازداد الطعام وارتفعت الأجور ومستوى المعيشة بدرجة كبيرة للناجين.

عايش مالتوس مجاعات أواخر القرن الثامن عشر، وهو ما ثبتّ وعيه على تلك السلسلة من الأحداث. يبيِّن الشكل رقم (١,١) الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد في إنجلترا من عام ١٢٦٥م إلى عام ١٥٩٥م في مقابل عدد السكان. وتوزيع نقاط البيانات، التي تتخذ شكل هلال رفيع، يصور "الفخ المالتوسي". توجز المؤرخة فيليس دين Phyllis Deane هذا المفهوم بدقة على النحو التالي:

> حين ارتفع عدد السكان في إنجلترا ما قبل الصناعية، انخفض الإنتاج لكل فرد، ولو حدث أن ازداد الناتج لسبب أو لآخر (نتيجة مثلاً لتقنية إنتاج جديدة أو اكتشاف مورد جديد أو فتح أسواق جديدة)، فقد كان عدد السكان يلاحقه ويبدد الزيادة في الدخل لكل فرد[٦].

في هذه الحلقة الأبدية قد يزداد الإنتاج الزراعي، لكن عدد السكان يلاحقه، بما يحكم على البشرية بأن تعيش على حد الكفاف تقريباً.

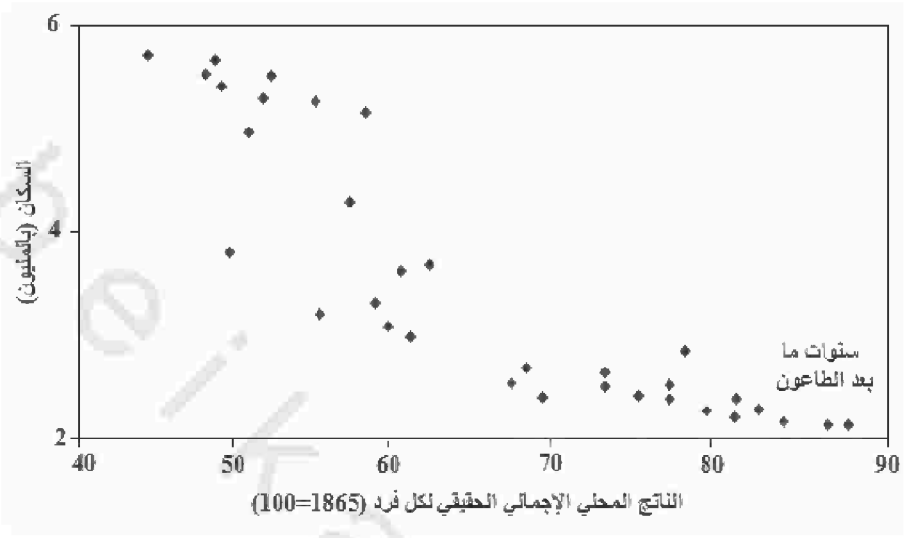

الشكل رقم (١,١). الفخ المالتوسي في إنجلترا في الفترة ١٢٦٥م–١٥٩٥م.

المصدر: Population data from British Population History from the Black Death to the Present Day, Michael Anderson, ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), 77; per capita GDP from Gregory Clark, "The Secret History of the Industrial Revolution," Working Paper, 2001.

وللمفارقة تبددت هذه الحالة المروعة فجأة، في أوروبا الغربية، بعد فترة قصيرة من تخليد مالتوس لها في كتابه "مقال حول مبدأ السكان" الذي نُشر في عام ١٧٩٨م. يوضح الشكل رقم (١,٢) حدوث انتفاخ في الهلال في حوالي عام ١٦٠٠م، وكما يبيّن الشكل رقم (١,٣)، فقد أفلت عدد السكان من الهلال بعد عام ١٨٠٠، ولن يعودوا ثانية إلى حافة المجاعة. فقد اتسع محور السكان الرأسي في الشكل رقم (١,٣) بحيث أصبح شكل الهلال الأصلي أقرب إلى شكل فطيرة مسطحة في أسفل الشكل البياني. لم ينتج الإفلات من الفخ عن زيادة معدل الإنجاب، بل عن انخفاض معدل الوفيات بنسبة ٤٠٪، نتيجة للتحسن السريع في مستويات المعيشة، الذي نتج بدوره عن الارتفاع المفاجئ في النمو الاقتصادي[٧].

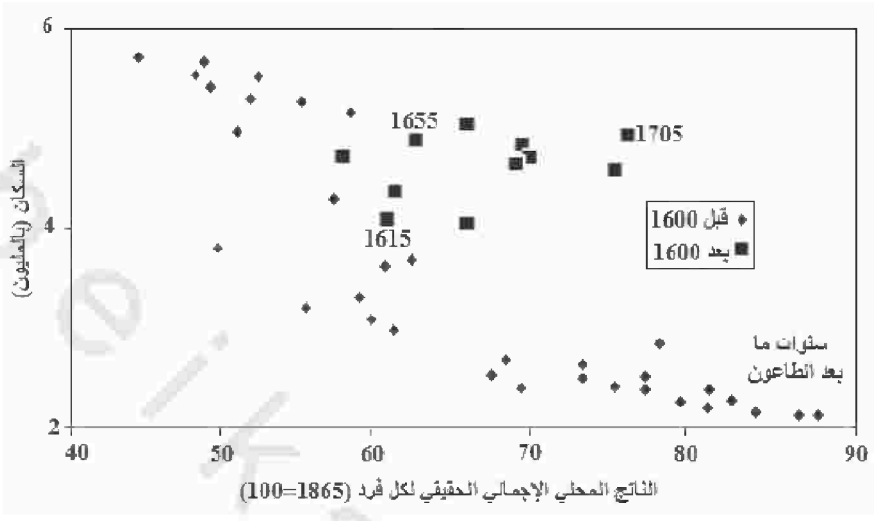

الشكل رقم (١,٢). الفخ يتلاشى بعد عام ١٦٠٠م.

المصدر: Population data from British Population History from the Black Death to the Present Day, Michael Anderson, ed., 77; per capita GDP from Clark, "The Secret History of the Industrial Revolution."

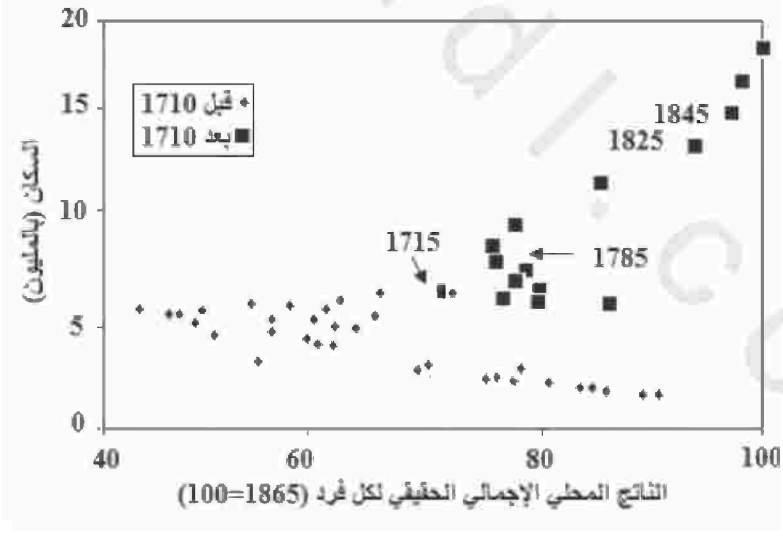

الشكل رقم (١,٣). الإفلات من الفخ بعد عام ١٨٠٠.

المصدر: Population data from British Population History from the Black Death to the Present Day, Michael Anderson, ed., 77; per capita GDP from Clark, "The Secret History of the Industrial Revolution."

تغيرت طبيعة ذلك النمو جذرياً في القرون التي تلت القرن السابع عشر. كان النمو في البداية "انتشارياً"، حيث تضمن توسعاً كبيراً للاقتصاد الوطني ناتج في المقام الأول عن زيادة سكانية لم يصاحبها تحسن حقيقي في الثروة أو الرفاه المادي للمواطن العادي. فقد استجمع الاقتصاد البريطاني للمرة الأولى في التاريخ نمواً كافياً لمواكبة الزيادة في عدد السكان. لكن بحلول القرن التاسع عشر أصبح النمو "مركزاً"، حيث تجاوز حتى الدافع الإنساني للتناسل، مع حدوث تقدم في معدل الدخل لكل فرد وزيادة في الرفاه المادي على المستوى الفردي[٨].

كيف اغتنت الأمم؟

بداية من حوالي عام ١٨٢٠م ازدادت سرعة التقدم الاقتصادي بشكل ملحوظ، وأصبح العالم بالتالي مكاناً أفضل للعيش. ماذا حدث؟ لقد حدث انفجار في التجديد التقني لم ير العالم مثيلاً له من قبل. لو طُلِب من تلميذ متوسط أن يعرّف الثورة الصناعية، فمن المؤكد أنه سيجيب: "اجتاحت إنجلترا في عام ١٧٦٠م موجة من الآلات الجديدة"[٩]. وهنا يكون الصبي المجهول قد أصاب بعض الحقيقة. فالتقنية الجديدة هي مصدر النمو الاقتصادي، ودونها لن تحدث زيادات في معدل الإنتاج والاستهلاك. وإذا أردنا إلى نُرْجِع الأمور إلى أصولها ومبادئها، نجد أن السؤال الذي يجب أن يُطرح هو: "وما المطلوب لتطوير الآلات؟ وهنا تبرز أربعة أشياء:

- **حقوق المِلكية**: لا بد أن يضمن المبتكرون والتجار أن ثمار عملهم لن تصادرها الدولة أو المجرمون أو المحتكرون تعسفياً. وضمان أن يحتفظ الشخص بمعظم عوائده العادلة هو الحق الذي يضمن كل الحقوق الأخرى. لاحظ التأكيد على كلمة "معظم"، حيث إن حق المِلكية ليس مطلقاً. فحتى أكثر الحكومات تحرراً من الناحية الاقتصادية، مثل سنغافورة وهونج كونج، تجبي بعض الضرائب،

وتفرض شكلاً من حق الحكومة في مصادرة الملكية الخاصة، وتحتفظ ببعض القيود على الحرية والعمل التجاريين. وبالمثل يمكن أن تحدث المصادرة بطريقة أقل وضوحاً مما يحدث في الدول الإقطاعية أو الاشتراكية. فالحكومة التي تفشل في السيطرة على التضخم أو إنفاذ ضوابط بنكية ملائمة، كما حدث في البرازيل في الثمانينيات أو يحدث في زمبابوي حالياً، تسرق يقيناً من مواطنيها، كما كان إدوارد الثالث وستالين يفعلان. وفي أوروبا ما قبل الحديثة كانت الاحتكارات الممنوحة من الحكومة مربحة جداً لمن يمارسها، وهو ما استنزف الحافز لدى بقية أفراد الأمة.

• **العقلانية العلمية**: يعتمد التقدم الاقتصادي على تطوير "الأفكار" وترويجها. والعملية الإبداعية تتطلب إطاراً فكرياً داعماً، أي بنية تحتية من التفكير العقلاني، مع الاعتماد على الملاحظة التجريبية وعلى الأدوات الرياضية التي تدعم التقدم التقني. غير أن المنهج العلمي الذي نعتبره بديهياً في الغرب الحديث ظاهرة جديدة نسبياً، لم تحدث إلا بعد أن حرر الغربيون أنفسهم من اليد الميتة للشمولية والعقلية الأرسطية. وحتى اليوم، خاصة في أجزاء من أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط، يُعرّض التقصي الفكري الأمين حياة ممارسه وملكيته لخطر مؤكد من جانب قوى الطغيان الحكومية والدينية.

• **أسواق رأس المال**: يتطلب الإنتاج الضخم للسلع والخدمات الجديدة مبالغ مالية كبيرة من الآخرين، أي "رأس مال"[٥]. فلا يكفي ضمان الملكية والقدرة على

(٥) إن مصطلح "رأس المال" capital مشحون بالمعاني الاقتصادية. وكثيراً ما يستخدم الاقتصاديون تعريفاً واسعاً للمصطلح، يشتمل رأس المال البشري والمعرفة أو رأس المال "الفكري"، إضافة إلى رأس المال المادي، كالمصانع والأجهزة. لكن هذا الكتاب يُعرّف "رأس المال" بأضيق المعاني: المال المتوفر للاستثمار.

الإبداع، إذ تبقى الحاجة إلى رأس المال لتطوير المخططات والأفكار. وحيث إن رجل أعمال واحداً لا يمتلك المال الكافي للإنتاج الضخم لاختراعاته، فلا بد للنمو الاقتصادي من رأسمال كبير من مصادر خارجية. قبل القرن التاسع عشر لم يكن أفراد المجتمع الأكثر ذكاءً وطموحاً تتوفر لهم المبالغ المالية الهائلة اللازمة لتحويل أحلامهم إلى حقيقة.

• **السرعة والكفاءة في الاتصال والنقل**: تتمثل الخطوة الأخيرة في إنتاج الآلات في الإعلان عنها وتوزيعها بين المشترين على بعد مئات أو آلاف الأميال. فحتى إذا كان رجال الأعمال يتمتعون بحقوق مِلكية آمنة وأدوات فكرية ملائمة ورأسمال كاف، تظل إبداعاتهم ضعيفة إلى أن يتمكنوا من توصيل منتجاتهم بسرعة وبسعر رخيص إلى أيدي المستهلكين. علماً بأن النقل البحري لم يصبح آمنا وكفءًا ورخيصا إلا قبل قرنين من الآن، مع تطور القوة البخارية، ولم يتبعه النقل البري إلا بعد خمسين عاماً تقريباً.

لا يمكن لأمة أن تزدهر قبل أن تفعّل هذه العوامل الأربعة جميعها: حقوق المِلكية والعقلانية العلمية وأسواق المال الفعالة والنقل والاتصال الفعالين. وقد اجتمعت هذه العوامل الأربعة أولاً ولفترة قصيرة في هولندا في القرن السادس عشر، لكنها لم تجتمع في العالم الناطق بالإنجليزية إلا في حوالي عام ١٨٢٠م. وبعد ذلك بوقت طويل بدأت العوامل الأربعة تشق طريقها إلى باقي أرجاء المعمورة.

على أن غياب أحد هذه العوامل فقط يعرض التقدم الاقتصادي والرفاه الإنساني للخطر، ذلك أن عدم وجود أحد هذه القوائم الأربعة من شأنه أن يهدم البناء الذي تقوم عليه ثروة أية أمة. حدث ذلك في هولندا القرن الثامن عشر بالحصار البحري البريطاني، وفي الدول الشيوعية بالافتقار إلى حقوق المِلكية، وفي معظم الشرق الأوسط بغياب أسواق المال والعقلانية الغربية. بينما لا تزال العوامل الأربعة جميعها تغيب عن أفريقيا في معظمها.

التاريخ الاقتصادي بالأرقام

إن أبطال هذه القصة الكمية هم المؤرخون الاقتصاديون الذين كرسوا حياتهم لكشف محددات الرفاه الإنساني وخطوطه العريضة عبر القرون. يأتي على رأس هؤلاء اقتصادي أسكتلندي مغمور يدعى أنغس ماديسون. ولد ماديسون في نيوكاسل في فترة الكساد، وربما كان ذلك هو مصدر افتتانه بالتنمية الاقتصادية:

> كان والدي يعمل بوظيفة ثابتة كميكانيكي في السكة الحديد، لكن كان لي عمان عاطلان، فضلاً عن كثير من الجيران العاطلين. لم يكن العاطلون فقراء فحسب، بل كانوا مكتئبين أيضاً. وكان كثيرون منهم يتسكعون بلا هدف في زوايا الشوارع، وهم منهكون في لفاعاتهم وقبعاتهم القماشية ويدخنون بقايا السجائر. وكان أطفالهم في أغلب الأحيان واهنين ومسلولين[١٠].

برع ماديسون في المدرسة، وقضى سنوات تكوينه في ذلك المرتع الفكري الغني، ألا وهو كامبردج في زمن الحرب[١١]. والرجل مولع بأن ينقل عن معلمه دارما كومر Dharm Kumar قوله: "إن الوقت أداة للمنع الفوري لأي شيء يحدث، والفضاء أداة لمنع أي شيء يحدث في كامبردج". يرتبط تطوير كل العوامل الأربعة الحاسمة السابقة بهذه الجامعة الأسطورية. فإذا كانت إنجلترا مسقط رأس الرخاء الحديث، فإن كامبردج كانت مرتع مهده، حيث أنجبت الكثير من صناعه الأساسيين: فرانسيس بيكون وإسحاق نيوتن والفقيه القانوني إدوارد كوك، فضلاً عن العشرات من الشخصيات المركزية الأخرى في القصة التي يحكيها هذا الكتاب[٦].

عمل ماديسون على مدى ربع قرن بعد تخرجه في عام ١٩٤٨م لحساب منظمة التعاون الاقتصادي لأوروبا Organization for European Economic Cooperation (OEEC) التي أُنشئت لتوجيه أموال مشروع مارشال بعد الحرب العالمية الثانية،

---

(٦) لعلها من المفارقات أن تتحول كامبردج في القرن العشرين إلى مرتع للخطاب المعادي للرأسمالية، وفي بعض الأحيان بؤرة للميول الشمولية.

ووريثتها منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين[٧] Organization for Economic Cooperation and Development (OECD)[12]. قضى ماديسون معظم وقته في التنقل بين أمم العالم الثالث، خاصة البرازيل وغينيا ومنغوليا وباكستان وغانا. وكثيراً ما عبّر عن ذهوله مما كشفته له رحلاته من اختلافات مهولة في الثروة والرفاه بين الأمم. وفي عام ١٩٧٨م تلقى درجة الأستاذية من جامعة غرونينجين Groningen بهولندا، وبدأ في صياغة رؤية متماسكة للتنمية الاقتصادية العالمية.

كانت الصورة التي رسمها ماديسون وغيره مذهلة وغير متوقعة. فنصيب الفرد المتوسط، كما يقاس بالناتج المحلي الإجمالي لكل فرد، لم يتغير مطلقاً على مدار الألفية الأولى بعد ميلاد المسيح. وعلى مدار السنوات الـ٥٠٠ التالية، بين عامي ١٠٠٠ و١٥٠٠م، لم تتحسن الأمور كثيراً. ويُظهِر الشكل رقم (١,٤) تقديرات ماديسون للناتج المحلي الإجمالي العالمي لكل فرد منذ ميلاد المسيح، مركزاً على رفاه الإنسان العادي. فقبل عام ١٨٢٠م لم يحدث تقدم مادي يُذكَر من عقد إلى عقد ومن قرن إلى قرن. وبعد عام ١٨٢٠م تحول العالم باطراد إلى مكان أكثر رخاءً.

هذه البيانات "المدوِّخة" التي تعتبر عام ١٨٢٠م السنة المدهشة annus mirabilis للنمو الاقتصادي العالمي تعتبر تعسفية في كثير من جوانبها. فالبيانات البريطانية، كما سنرى، تؤخر انطلاق النمو قليلاً، والبيانات الأمريكية تُسبّق انطلاق النمو هناك قليلاً. وأياً كان التاريخ المختار، فمن المؤكد أنه في وقت ما في النصف الأول من القرن التاسع عشر انطلق نمو الاقتصاد العالمي، ومعه جاء الرخاء، رغم الخراب المتكرر بسبب الحروب والنزاعات المدنية والثورات.

---

(٧) الاسم المتداول عربياً لهذه المنظمة هو "منظمة التنمية الاقتصادية والتعاون"، مع أن الصفة "اقتصادي" تنعت الاسمين "تنمية" و"تعاون" [المترجم].

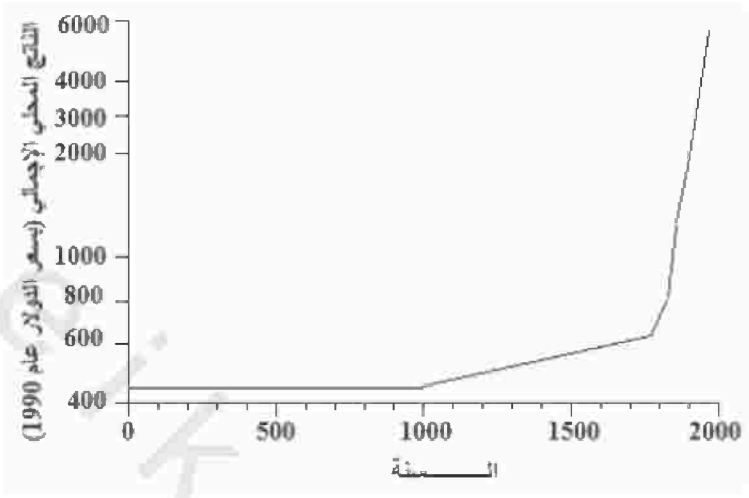

الشكل رقم (١,٤). الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد على مستوى العالم (معدلا ضد التضخم).

المصدر: Maddison, The World Economy: A Millennial Perspective, 264.

يوجز الشكل رقم (١,٥) متوسط النمو السنوي في الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي لكل فرد حول العالم، ويتضح فيه الانطلاقة التي حدثت في حوالي عام ١٨٢٠م من وجهة نظر مختلفة. فقبل عام ١٨٢٠م أيضاً لم يحدث تحسن يذكر في الرفاه المادي للإنسان العادي. تتناقض هذه الصورة مع الصورة التي يتعلمها الطلاب في أقسام العلوم الإنسانية في بلادنا. فمن منظور متخصصي اللغات الرومانسية[٨] أو مؤرخي الفن يبدو عصر النهضة النقطة المحورية في الألفية الثانية. لكن كُتاب تلك الفترة وفنانوها العظماء لم يقدموا الكثير لتحسين التغذية أو تطوير النقل أو منع الطاعون. وفي عصر كان الإنسان العادي فيه لا يخاطر بالابتعاد أكثر من بضعة أميال عن مسقط رأسه، لم يكن بمقدور اللوحات الجصية بكنيسة سيستينا[٩] أن تفعل الكثير لرفع الروح الإنسانية الجماعية.

---

(٨) اللغات الرومانسية Romance languages هي اللغات التي انبثقت عن اللغة اللاتينية [المترجم].

(٩) كنيسة سيستينا Sistine Chapel هي أشهر كنيسة في القصر الرسولي والمقر الرسمي للبابا في الفاتيكان، تشتهر بعمارتها وزخرفتها التي جصصها فنانو عصر النهضة العظماء من أمثال مايكل أنجلو ورافايل وبيرنيني وبوتشيلي [المترجم].

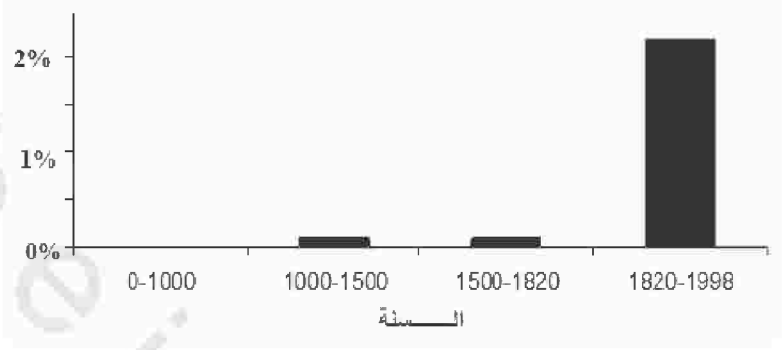

الشكل رقم (١,٥). نمو الناتج المحلي الإجمالي العالمي لكل فرد بالفترات (معدلا ضد التضخم).

المصدر: Maddison, The World Economy: A Millennial Perspective, 264.

لم يجد الاقتصاديون صعوبة في انتقاد تقديرات ماديسون للدخل والإنتاج في قرون موغلة في الماضي. فكيف تثبت ماديسون، على كل، من أن الناتج المحلي الإجمالي السنوي لكل فرد في اليابان عند ميلاد المسيح كان ٤٠٠ دولار بالأسعار الحالية، وليس ٢٠٠ دولار أو ٨٠٠ دولار؟ يسلم ماديسون لنقاده قائلاً: "تستلزم العودة إلى الماضي استخدام أدلة أضعف واعتماداً أكبر على الإشارات والتخمينات"[١٣].

يفرض العصر الحديث مشكلة أكبر حقاً. فحتى البيانات الاقتصادية الأكثر دقة لا تستطيع أن تقيس القيمة الحقيقية للاختراعات الجديدة. فكم كان مورغان[١٠] سيدفع ثمناً لمقعد رخيص على طائرة جامبو من مطار كيندي إلى مطار هيثرو؟ وما القيمة التي كان شكسبير سيضفيها على القدرة على إنتاج خمسة آلاف كلمة يومياً على حاسوب ماكنتوش ثم إرسالها بالبريد الإلكتروني إلى عشرات الأصدقاء؟ فحتى أفقر المواطنين في الغرب المتقدم تتوفر له اليوم سلع وخدمات، مثل السيارات الموثوقة والتلفزيون والإنترنت، لم تكن تتوفر قبل قرن بأي سعر. ومع أن قيمة الكثير من السلع والخدمات

---

(١٠) جون بيربونت مورغان J. P. Morgan (١٧ أبريل ١٨٣٧م إلى ٣١ مارس ١٩١٣م) ممول ومصرفي أمريكي وجامع للفنون، هيمن في عصره على تمويل الشركات والاندماج الاقتصادي. سيأتي المزيد عنه في الفصل الرابع من هذا الكتاب [المترجم].

الحديثة مشكوك فيها، فإن بعضها ليست كذلك. وحتى وقت متأخر، تحديداً عام ١٩٤٠م، كان الالتهاب الرئوي والتهاب السحايا، اللذان يمكن منعهما اليوم بمضادات حيوية تكلف بضعة دولارات، يصيبان من يتربعون على قمة هرم الثروة والقوة، فضلاً عن الفقراء بالطبع. وفي مسار مختلف، حاول أن تتخيل ما كان يستطيع المهندسون والفيزيائيون العظماء في أوائل القرن العشرين أن يفعلوه بالحاسوب الشخصي.

كيف يقيس المؤرخون الاقتصاديون الناتج المحلي الإجمالي لروما القديمة أو للإمبراطورية الكارولنجية[١١]؟ على مدار التاريخ لم تكن ثمة وزارة للتجارة أو مكتب للتحليل الاقتصادي. وحتى القرن السابع عشر لم يشرع علماء السكان الأوائل، مثل جون غرونت John Graunt وكاسبر نومان Caspar Naumann، في جدولة البيانات التأمينية، وحتى بعد قرنين من ذلك، لم يشرع الاقتصاديون في جمع بيانات مالية كلية دقيقة للدول الفردية.

وإذا أردت أن تقيس التقدم الاقتصادي على مدى القرون، فعليك أن تسأل أولاً كم يلزم من المال للعيش عند حد الكفاف؟ كان تقدير ماديسون أن حوالي ٤٠٠ دولار سنوياً كان دخلاً مطلوباً للعيش عند حد الكفاف في الدول المتخلفة في عام ١٩٩٠م. وبعد ذلك يستخدم المؤرخ الاقتصادي أية بيانات تقع تحت يديه لتحديد نسبة السكان التي كانت تعيش عند هذا المستوى. والمجتمع الذي يعمل كل سكانه بالزراعة، ولا يصدّر قدراً كبيراً من إنتاجه الزراعي، يعيش بحسب التعريف قريباً جداً من مستوى حد الكفاف: ٤٠٠ دولار سنوياً. لكن من العسف أن ننقل نفس الناتج المحلي الإجمالي للفرد الذي حدده ماديسون - أي ٤٠٠ دولار - لأوروبا في بداية القرن الأول الميلادي إلى الصين في عام ١٩٥٠م، أو إلى بوركينا فاسو المعاصرة، لكن ذلك يقدم للمؤرخين الاقتصاديين مؤشرا يقيسون عليه النمو الاقتصادي.

---

(١١) الإمبراطورية الكارولنجية مصطلح تأريخي يستخدم للإشارة إلى مملكة الفرنجة في أثناء حكم الأسرة الكارولنجية في أوائل العصور الوسطى، تلك الأسرة التي تعتبر مؤسسة فرنسا وألمانيا [المترجم].

ثمة طريقة أخرى لتناول هذا الموضوع وهي النظر إلى "نسبة الحضر"، أي نسبة السكان الذين يعيشون في مدن أكبر مثلاً من ١٠٠٠٠ نسمة، وهو بالاستدلال مقياس لنسبة الأشخاص الذين يعملون في الزراعة. في ذروة العصرين اليوناني والروماني، على سبيل المثال، كانت نسبة صغيرة جداً من عامة الناس تعيش في مدن يزيد عددها عن ١٠٠٠٠ نسمة. وبحلول عام ١٥٠٠ كانت نابولي أكبر مدينة بأوروبا، حيث كان يقطنها ١٥٠٠٠٠ شخص، وكان ٨٦٥٠٠٠ أوروبياً فقط، أو حوالي ١٪ من سكان القارة، يعيشون في مدن أكبر من ٥٠٠٠٠ نسمة، وكان ٦٪ آخرون يعيشون في بلدات أكبر من ١٠٠٠٠ نسمة. وفي المقابل كان أكثر من ٩٠٪ من الأوروبيين يعملون بالزراعة في القرون الوسطى. وفي الحضارات الكبرى بآسيا، التي كانت في القرون الوسطى أكثر تقدماً بكثير من المجتمعات الأوروبية، كانت نسبة السكان الذين يعملون بالزراعة تقترب حتى من ١٠٠٪، ولم تقدم الثروات الضخمة لدى النخب الحاكمة الصغيرة شيئاً لرفع المستوى الإجمالي للرخاء في هذه البلاد. ولذلك يبدو من المقبول أنه قبل عام ١٥٠٠ كان الناتج المحلي الإجمالي العالمي لكل فرد قريباً من ٤٠٠ دولار، وهو حد الكفاف الذي حدده ماديسون.

وفي الولايات المتحدة كان ٧٠٪ من العمال يعملون بالزراعة حتى عام ١٨٢٠م (نظراً لأن الولايات المتحدة كانت تصدّر جزءاً كبيراً من ناتجها الزراعي، فقد كانت مستويات المعيشة بها أعلى كثيراً مما تقترح نسبة الحضر المنخفضة). وبحلول عام ١٩٩٨م انخفض هذا الرقم إلى ٢٪. وعلى من يضفون مسحة رومانسية على حياة المزرعة أن يعرفوا أن نسبة السكان الذين يعملون بالزراعة تشكل في العالم الحديث مؤشراً قوياً على الفقر (كان الموقف معكوساً عند فجر الحضارة، حيث كان البشر ينتقلون لتوهم من حياة الإنتاج البدوي القائمة على الصيد والجمع إلى حياة الاستقرار

الأكثر رخاء نسبياً للمزارعين. وربما كانت جماعات الصيد والجمع في ذلك العصر تشتكي من طرق الحياة الجديدة الناعمة عديمة الروح للمزارعين، حتى إن كثيراً من القبائل الأمريكية الأصلية تحتقر الزراعة بوصفها عمل النساء).

ميّز المؤرخون الاقتصاديون مؤخراً فترات من النمو الاقتصادي المستدام قبل عام ١٥٠٠م لدى الأمم المختلفة. فأوضح الاقتصادي إ ل جونز E. L. Jones أن نمواً كبيراً حدث في الصين في عهد أسرة سونغ[١٢] (٩٦٠م-١٢٧٩م) وفي اليابان في عهد أسرة توكوغاوا[١٣] (١٦٠٣م-١٨٦٧م)[١٤]. وقد وصل إنتاج الحديد في أواخر عهد أسرة سونغ مستوى لم تبلغه أوروبا حتى أواسط القرن الثامن عشر. يطلق جاك غولدستون Jack Goldstone من جامعة كاليفورنيا وصف "الازدهار" على تلك الفترات، وهي أزمان تقدمت فيها التقنية ومستوى المعيشة سريعاً، على الأقل بين الطبقة الحاكمة[١٥]. لكن جونز وغولدستون نفسيهما يعترفان بأن النمو في العالم ما قبل الحديث كان في الأخير هشاً وعابراً. فبعد الغزو المنغولي، دخل الاقتصاد الصيني غيبوبة طالت قروناً، وبدأ لتوه فقط يخرج منها.

كانت أوروبا تنتج بعض النمو الاقتصادي بعد انهيار روما. فقد شهدت في أوائل القرون الوسطى تحولاً من نظام المحصولين في السنة إلى نظام المحاصيل الثلاث، واختراع الحدوة وطوق العنق للحصان، والطاحونة المائية، والطاحونة الهوائية، والاستعاضة عن العربة ذات العجلتين بالعجلة ذات الأربع عجلات[١٦]. يختلف المؤرخون

(١٢) أسرة سونغ Song حكمت الصين من عام ٩٦٠م إلى عام ١٢٧٩م وكانت أول حكومة في العالم تصدر الأوراق النقدية، وأول حكومة صينية تقيم أسطولاً دائماً. شهدت هذه الأسرة أيضا أول استخدام معروف للبارود، وكانت أول من تعرف على الشمال الحقيقي باستخدام البوصلة [المترجم].

(١٣) توكوغاوا Tokugawa أو شوغونية تاكوغاوا Tokugawa Shogunate كانت نظاما إقطاعيا في اليابان أسسه توكوغاوا إياسو Ieyasu وتوالى على الحكم فيه شوغونات أو حكام عسكريون من أسرة توكوغاوا، وتعرف هذه الفترة في تاريخ اليابان أيضا باسم فترة إدو Edo نسبة إلى اسم العاصمة الذي تغير في عام ١٨٦٤م إلى طوكيو [المترجم].

الاقتصاديون حول الوقت الذي بدأت فيه هذه التغييرات في التأثير على النمو، وتراوحت التقديرات من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر.

أحدثت هذه التقنيات نمواً انتشارياً، لكنها لم تؤد إلا إلى زيادات في عدد السكان، دون أن يتغير رفاه المواطن المتوسط. ويعد تعدد الآراء حول توقيت نهضة النمو في عالم ما بعد الرومان دليلاً كافياً على أن النمو لكل فرد (وهو أفضل مقياس للتحسن في رفاه الفرد) لم يكن كبيراً أو مستداماً.

يكمن الجمال في فحص فترات تاريخية طويلة في أنه "يغسل" حتى الأخطاء الكبيرة في تقدير النمو. فإذا غطينا فترة ألف سنة، على سبيل المثال، وبالغنا في تقدير الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد عند بدايتها أو نهايتها بعامل واحد من اثنين، فإن ذلك يستتبع خطأ قدره ٠,٠٧٪ فقط في معدل النمو السنوي. ولو أردنا أن نعبر عن ذلك بطريقة ثانية لقلنا أنه لا يمكن لنمو الناتج المحلي الإجمالي العالمي لكل فرد منذ ميلاد المسيح أن يصل مستوى ٠,٥٪، وأنه لو وصل هذا المستوى، لنما الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد من ٤٠٠ دولار بالأسعار الحالية إلى أكثر من ٨,٦ مليون دولار بحلول عام ٢٠٠٠م! يؤكد ذلك لنا أنه على مدى معظم هذه الفترة كان النمو قريباً جداً من الصفر.

ثمة طريقة ثالثة لإثبات ذلك وهي أن أكثر التقديرات تفاؤلا لا تقترح أكثر من زيادة قدرها ضعفين أو ثلاثة أضعاف في الناتج المحلي الإجمالي العالمي لكل فرد بين العام الأول لميلاد المسيح وعام ١٠٠٠م، في مقابل زيادة قدرها ثمانية أضعاف في السنوات الـ١٧٢ التي تلت عام ١٨٢٠م. وفي هذه السنوات الـ١٧٢ نفسها نما الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد في المملكة المتحدة عشرة أضعاف، وفي الولايات المتحدة عشرين ضعفاً.

ضابط سرعة النمو على معدل ٢٪

إن قوة النمو الاقتصادي الحديث مذهلة. فعلى مدار القرن التاسع عشر تسارع نمو الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي لكل فرد فيما يعرف الآن بالعالم المتقدم تدريجيا إلى

حوالي ٢٪ سنوياً، ثم حافظ على تلك السرعة على امتداد كامل القرن العشرين العاصف. والجدول رقم (١,١) يبيِّن نمو الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي لكل فرد في ١٥ دولة في القرن العشرين، ويقسّمها إلى دول دمرتها الحربين العالميتين أو الحروب الأهلية ودول لم يطالها هذا الدمار.

لاحظ كيف تتجمع معدلات النمو حول معدل ٢٪، حيث رفعت ثلاث عشرة دولة من خمس عشرة ناتجها المحلي الإجمالي لكل فرد ما بين ١,٦٪ و٢,٤٪ سنوياً. يبدو الأمر وكأن هناك قوة لا تقاوم – نوع من ضابط السرعة cruise control الاقتصادي – كان يدفع معدل الإنتاج لأعلى عند مستوى ٢٪ سنوياً تحديداً، وليس أسرع أو أبطأ من ذلك. لاحظ كذلك عدم وجود اختلاف بين متوسط معدلات النمو للدول التي مزقتها الحروب والدول التي لم تمزقها الحروب. فالخراب الذي أحدثته الحروب، على ما يبدو، لم يُحدِث ضرراً طويل المدى لاقتصادات الدول المتقدمة.

الجدول رقم (١,١). نمو الناتج المحلي الإجمالي السنوي لكل فرد ١٩٠٠م–٢٠٠٠م.

دول دمرتها الحروب		دول لم تدمرها الحروب	
بلجيكا	١,٧٥٪	أستراليا	١,٥٧٪
الدنمارك	١,٩٨٪	كندا	٢,١٧٪
فرنسا	١,٨٤٪	أيرلندا	٢,٠٨٪
ألمانيا	١,٦١٪	السويد	١,٩٦٪
إيطاليا	٢,١٨٪	سويسرا	١,٧٢٪
اليابان	٣,١٣٪	المملكة المتحدة	١,٤١٪
هولندا	١,٦٩٪	الولايات المتحدة	٢,٠٠٪
أسبانيا	١,٩١٪		
المتوسط	٢,٠١٪		١,٨٥٪

المصدر: Data from Maddison, The World Economy: A Millennial Perspective, 276-79; Maddison, Monitoring the World Economy 1820-1992, 194-97; and Organization for Economic Cooperation and Development.

يُظهِر الجدول رقم (١,١) والشكل رقم (١,٦) خاصية أخرى ساحرة للاقتصادات الغربية، وهي أن الاقتصادات الأكثر غنى في عام ١٩٠٠م كانت الأبطأ في النمو على مدار القرن العشرين، بينما كانت الدول الأقل غنى في ذلك العام هي الأسرع نمواً في نفس الفترة. معنى ذلك أن الثروة لكل فرد في الدول الأكثر تقدماً أخذت تتقارب فيما بينها. فاليابان التي بدأت القرن العشرين كأفقر دولة في الجدول، نما إنتاجها بمعدل ٣,٠٪ سنويا، بينما نما إنتاج الدولة الأولى في عام ١٩٠٠م، وهي بريطانيا العظمى، بمعدل ١,٤٪ سنوياً فقط.

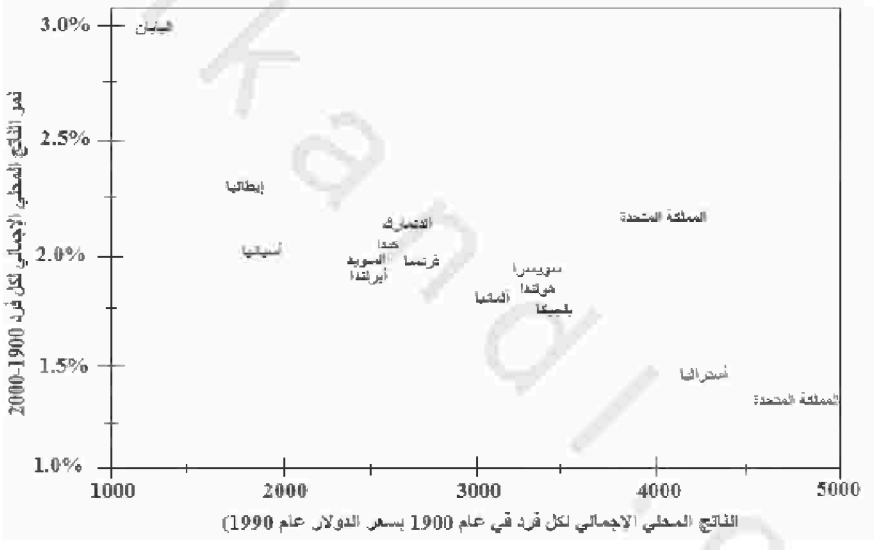

الشكل رقم (١,٦). النمو في مقابل الثروة في بداية الفترة.

المصدر: Maddison, The World Economy: A Millennial Perspective, 276-79, and Monitoring the World Economy, 1820-1992, 194-97; and Organization for Economic Cooperation and Development.

يتجلى المثال الأوضح لمرونة الاقتصادات الغربية – بمعنى ميلها وقدرتها على "اللحاق" – في تحسن الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد في ألمانيا واليابان بعد الحرب. يتضح الخراب الذي لحق بالآلة الاقتصادية لدول المحور في أثناء سنوات الحرب في الحافة اليسرى للشكل رقم (١,٧). دخلت اليابان الحرب العالمية الثانية بناتج محلي إجمالي .

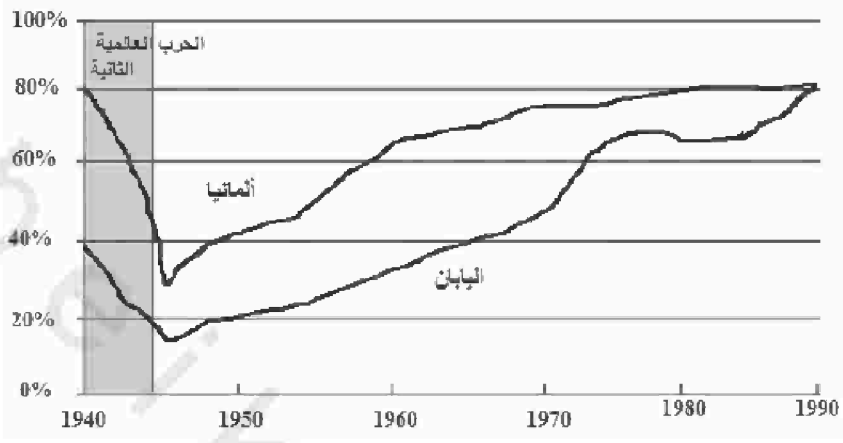

الشكل رقم (١,٧). الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد في مقابل نظيره الأمريكي (الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي = ١٠٠٪).

المصدر: Maddison, Monitoring the World Economy, 1820-1992, 194-97.

لكل فرد قدره ٤٠٪ من نظيره الأمريكي، ثم انخفض ذلك الرقم بنهاية الحرب إلى ١٥٪ فقط. وانخفض الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد في ألمانيا من ٨٠٪ من نظيره الأمريكي في أثناء نفس الفترة إلى ٤٠٪. لكن بحلول الستينيات استعادت الدولتان قيمة الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد قبل الحرب نسبة إلى الولايات المتحدة.

كان التعافي من الكوارث فيما قبل العصر الحديث على هذا النحو مستحيلاً. من ذلك أن الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد في الصين، الذي كان مزدهراً في عهد أسرة سونغ، ظل فاتراً لسبعة قرون بعد الغزو المنغولي. لكن تستطيع آلة النمو الغربية، في المقابل، أن تختزل كارثة الغزو إلى مجرد مشكلة عارضة. كان الناتج المحلي الإجمالي النسبي لكل فرد باليابان قد نما بحلول عام ١٩٩٠م حتى اقترب من الولايات المتحدة. ومع أن السياسة المستنيرة للمنتصرين في الحرب العالمية الثانية كانت عاملاً مهماً في التعافي السريع لليابان وألمانيا، فإن هذا الإحسان لا يفسر أداء ألمانيا بعد هزيمتها في

الحرب العالمية الأولى، حين نجحت في غضون عقدين في التعافي لدرجة مكنتها من غزو معظم أوروبا، رغم العقوبات التي فرضتها معاهدة فيرساي عليها.

لم تكن بداية القرن التاسع عشر فاتحة للتحول في كل أنحاء العالم. ففي البداية لم تزدهر إلا أوروبا وامتداداتها في العالم الجديد. وعلى مدار القرنين التاليين غطى النمو الغربي بقية الكرة الأرضية.

كانت هناك إشارات قبل عام ١٨٢٠م إلى الرخاء القادم. ففي عام ١٥٠٠م، كما يقدّر ماديسون، بلغ متوسط الناتج المحلي الإجمالي الأوروبي لكل فرد ٧٧٤ دولاراً، ووصل في إيطاليا عصر النهضة إلى ١١٠٠ دولار[١٧]. لكن رخاء إيطاليا النسبي لم يدم طويلاً، حيث أصابه الركود بعد عام ١٥٠٠، بينما بدأت هولندا تشهد نمواً اقتصادياً دائماً، وإن كان بطيئاً. وفي نفس الوقت تقريبا بدأ معدل النمو في بريطانيا يزداد هو الآخر، وإن كان بدرجة أبطأ كثيراً من هولندا.

جاءت الثورة المجيدة في عام ١٦٨٨م إلى إنجلترا بمَلكية دستورية مستقرة، وسرعان ما تلا ذلك استيراد ملك هولندي[١٤] وزيدة مؤسسات هولندا المالية والتقدم الهولندي في أسواق المال عبر بحر الشمال. ومع ذلك فقد استغرق الأمر أكثر من قرن لكي تتزايد سرعة النمو الإنجليزي. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر فقط أصبح الرجل الإنجليزي المتوسط يعيش حياة أفضل من الرجل الهولندي المتوسط، وهو ما حدث فقط نتيجة للحصار البحري البريطاني الذي امتد عقودا على هولندا، وما تلاه من تفكيك نابليون للجمهورية الهولندية واستغلالها.

زرعت إنجلترا مستعمراتها فيما وراء البحار بمواطنيها، والأهم من ذلك بمؤسساتها القانونية والفكرية والمالية. ولم يبدأ التحول الاقتصادي الكبير ينتشر في بقية أوروبا وآسيا

---

(١٤) هو الأمير وليام الثالث حاكم هولندا وزوج ابنة ملك إنجلترا الذي اعتلى العرش البريطاني باسم وليام أورانج [المترجم].

إلا متأخرا كثيرا. فلم تظهر تأثيراته واضحة، كما يبيّن الشكل رقم (١,٨)، حيث حدثت "انطلاقة" إنجلترا واليابان والصين في أعوام ١٨٢٠م و١٨٧٠م و١٩٥٠م على التوالي.

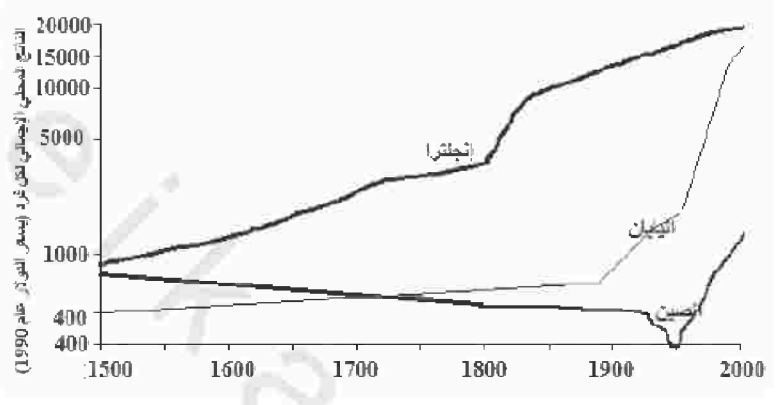

الشكل رقم (١,٨). الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد (معدلا ضد التضخم).

المصدر: Maddison, The World Economy: A Millennial Perspective, 264, 276-79.

لماذا نبحث حالة الركود في أوائل التاريخ الحديث؟ لأنه في وقت ما حول عام ١٨٢٠م بدا أن العالم يتقلب رأسا على عقب، ولأن مسار التقدم الاقتصادي الإنساني قبل ذلك الوقت يمكن تشبيهه بالنمو المعاق للشجيرات التي تنمو تحت أشجار كبيرة، وبعد ذلك أصبح يشبه النمو النشط والثابت للبلوط، ولأن قصة الالتقاء الحاسم الأخير لحقوق الملكية والعقلانية العلمية والأسواق المالية والنقل والاتصال الحديثين في القرن التاسع عشر، وإنتاجها لماكينة الثروة الحديثة، لها صلة وثيقة بالحياة الحديثة.

سنبدأ بفحص حالة الحياة اليومية في أوروبا الغربية قبل عام ١٦٠٠م، مع التركيز على الشروط الأربعة للتقدم الاقتصادي. ويمكن تلخيص فترة القرون الوسطى في بعض القصص البسيطة التي ينظمها الفصل بطريقة فضفاضة تحت عوامل النمو الأربعة الأساسية.

غياب حقوق المِلكية فيما قبل العصر الحديث

لم ينكر نظام حقوق المِلكية والحرية الفردية، كما فعل النظام الإقطاعي في القرون الوسطى، وذلك بالطبع باستثناء حق تملك البشر، أي العبودية التامة. واليوم لا تحمل الكلمة ذاتها - "الإقطاع" - إلا ظلاً خافتاً لتأثيره في زمنه. تخيل للحظة أنك فلاح متوسط الحال في القرن الحادي عشر. ها أنت تسجد أمام سيدك الذي يُشبّك يديك في يديه، ثم تقسم بأن تقدم خدمتك الدائمة له وحده. على أن ارتهانك له ليس مالياً أو تجارياً فحسب، فأنت ترهن له حياتك وشرفك. فتعيش بلا مال، وتعطيه عملك، وحياتك في بعض الأحيان، في مقابل حمايته لك من العالم الخارجي.

كان جوهر العلاقة الإقطاعية أنها علاقة غير مالية. كانت الضيعة الإقطاعية تنتج فائضاً قليلاً للبيع، وكان كل التبادل تقريباً يجري بالمقايضة. فنادراً ما كان السادة الإقطاعيون ينظرون إلى ميراثهم باعتباره نقداً، ونادراً ما كان العبيد يستخدمون العملة المعدنية. وحتى وقت متأخر، تحديداً عام ١٧٤٥م، أشار آدم سميث بعجب إلى قيام سيد إقطاعي أسكتلندي بتجهيز ٨٠٠ رجل للحرب بدخل إقطاعي أقل من ٥٠٠ جنيه سنوياً[١٨]. وقد ظلت آثار الحقوق الإقطاعية ماثلة في عدة أحياء بباريس إلى أن ألغيت أخيراً في المراحل الأولى للثورة الفرنسية[١٩].

كان السادة الإقطاعيون مستعبدين تماماً مثل عبيدهم. فالحقيقة، كما لاحظ ماركس، هي أن الأرض، تلك الثروة البارزة في العالم ما قبل الحديث، كانت ترث السيد الإقطاعي، وليس العكس. والأرض، كما سنرى، كانت معيبة جداً كمستودع رئيس لثروة المجتمع، حيث لم تكن تقسم أو تباع أو تحسن بسهولة.

علاوة على أنه في مجتمع الدولة الإقطاعية غير النقدي كان يتحتم استهلاك السلع التي لا يمكن أن تُخزن قبل أن تفسد. ولذلك فبينما يُظهِر المجتمع الحديث الثروة من

خلال الممتلكات المادية، كان المجتمع الإقطاعي يُظهِرها من خلال الولائم والأعياد الاستهلاكية.

كان مفهوم حقوق الملكية غير وارد في هذا المجتمع غير النقدي، وكان كوخ الفلاح وأدواته مجرد امتدادات لذاته، وهو مفهوم لا يزال باقياً إلى يومنا هذا في الميل الأوروبي إلى إعطاء أسماء شخصية للمساكن. والكوخ نفسه تعود ملكيته للسيد الإقطاعي، والأدوات كانت لا تباع بأي سعر، لأنه لم يكن هناك مشترون أو أسواق عامة أو حتى مال. هكذا وصف آدم سميث نصيب الفلاح:

> كان من يفلحون الأرض أقناناً [عبيدا] عموماً، وكذلك الأشخاص التابعين لهم وممتلكاتهم المنقولة أيضاً كانت ملكا للسيد الإقطاعي. ومن لم يكونوا أقناناً، كانوا مستأجرين أحراراً، ومع أن الإيجار الذي كانوا يدفعونه كان في أغلب الأحيان أكثر قليلاً من رسم بدلي[١٥]، فقد كان يصل في الحقيقة إلى محصول الأرض كله. وكان بمقدور سادتهم الإقطاعيين أن يأمروهم في جميع الأوقات بالعمل لحسابهم في السلم وخدمتهم في الحرب. ومع أنهم كانوا يعيشون على مسافة من بيت السيد، فإنهم أيضاً كانوا معتمدين عليه تماماً مثل خدمه الذين كانوا يعيشون في بيته. لكن كل محصول الأرض كان بلا شك ملكاً للسيد الذي كان بمقدوره أن يتصرف في عمل كل من يعيشون على الأرض وخدماتهم.

ولذلك لم يكن لدى عبيد القرون الوسطى حافزاً كافياً لإنتاج محصول يزيد عن التزاماتهم الإقطاعية، أو لزيادة معدل إنتاج الأرض التي يزرعونها. فإذا كان السيد الإقطاعي يملك الفلاح وكل ناتج عمله، فلماذا إذن يعمل الأخير بقوة، ناهيك عن أن يبدع؟ والأهم من ذلك أن البنية الإقطاعية لم تترك مجالاً أو متسعاً لفكرة الأمة. فكانت

---

(١٥) الرسم البدلي quit-rent هو الإيجار النقدي الذي كان العبد يدفعه لقاء الإعفاء من القيام بالخدمات التي يدين بها للسيد الإقطاعي.

السياسة محلية تماماً. فـ"الرابطة التي تشكل الأساس للبناء السياسي"، بتعبير باربرا تشمان Barbara Tuchman، "لم تكن المواطنة للدولة، وإنما التابعية للسيد الإقطاعي، حيث كانت الدولة لا تزال تعاني مخاضها"[٢٠].

لقد فشل النظام الإقطاعي في حماية الملكية والاعتراف بالمساواة أمام القانون، وقبل ذلك خنقَ النشاط الاستهلاكي الأساسي. فقوانين الإنفاق، التي كانت تحدد ما يُلبَس وفقا للمرتبة والدخل، خنقت الاقتصاد الذي كان مُنتَجه الصناعي الأساسي هو المنسوجات. ففي فلورنسا، مثلا، لم يكن فرو القاقم مسموحاً به إلا للنبلاء والأطباء والقضاة، بينما في فرنسا كان السيد أو السيدة الإقطاعية يستطيع أن يشتري أربعة أثواب كُستم فقط في السنة، واحداً منها كلباس صيفي، وفقط إذا كان دخله السنوي أكثر من ستة آلاف جنيه فرنسي. وكان القانون الإنجليزي هو الآخر ينص على مستويات دخل صارمة لارتداء ملابس معينة. فكانت النبالة تعطي لصاحبها ضعف حق الآخرين، حيث كان الأرستقراطي الإنجليزي يستطيع أن يرتدي رداءً معيناً إذا كان دخله السنوي ٥٠٠ جنيه، بينما كان التاجر يحتاج دخلاً قدره ١٠٠٠ جنيهاً للحصول على نفس الامتياز[٢١].

أدى انتشار الاقتصاد النقدي، في بدايات الألفية الثانية، إلى تآكل الإقطاع وتدميره في النهاية. فعندما أصبح بمقدور الفلاح أن يبيع عمله إلى من يقدم أعلى سعر، انحلت الروابط التي كانت تربط الخادم بالسيد. وهنا فقط أصبحت المؤسسات القانونية والرأسمالية الوطنية الحيوية قادرة على التطور. فأصبح بمقدور الأفراد أن يشتروا حريتهم بعملة المملكة، وفي بعض الأحيان تمكنت قرى كاملة من فعل ذلك، كما حدث عندما اشترت مدينة كوسي لو شاتو Coucy-le-Chateau الفرنسية الشمالية المعروفة صك حريتها من أرملة الإقطاعي المفلسة في مقابل ١٤٠ جنيهاً فرنسياً في عام ١١٩٧م[٢٢].

أهمية الجدية في فرض الضرائب

تحتاج كل الدول إلى دخل، وطريقة الحكومات في فرض الضرائب وجبايتها هي قوام حياة الأمم. كانت الدول، في العالم ما قبل الحديث، ترهق أفقر رعاياها وأضعفهم بالضرائب. ولذلك كان الفشل مآل الجميع. فكما تضمن الدول الناجحة حقوق الملكية بتحقيق النزاهة في تقرير الملكية، يجب عليها أيضاً أن تُظهِر نفس العدالة في تحديد طريقة جباية الضرائب على الثروة والدخل. لم يكن ذلك هو الحال بالتأكيد في عالم القرون الوسطى، حيث كان النبلاء يُعفَون من ضرائب الأرض في مقابل "حمايتهم" لعبيدهم مادياً. والكهنة أيضاً دخلوا في اللعبة، حيث أُعْفوا من الضرائب، رغم ثرواتهم الطائلة في الغالب، نظراً "لحمايتهم" للعبيد روحياً.

الشوارع متوسطة الحال

تتطلب حقوق الملكية الفعالة الحماية من الجريمة. وقد كانت مدن وبلدات القرون الوسطى أماكن خطرة لدرجة لا يمكن تصورها، حيث بلغ المستوى العام للعنف فيها أن عدد حالات القتل كان ضعف عدد الوفيات العرضية. فكانت الشجارات القاتلة تشكل جزءاً روتينياً من الحياة اليومية، والمبارزات التي كانت توفر نشاطاً عسكرياً بديلاً للفرسان، بعد أن انتهت الحاجة إليها بسبب استخدام الأقواس ومنجنيقات الحصار، كانت تنحرف في أغلب الأحيان إلى قتل بالجملة. وفي المقابل كان ١٪ فقط من القتلة يُقدَمون إلى العدالة. كما كان الاختطاف مصدراً شائعاً لكسب الرزق، خاصة بين الفرسان العاطلين[٢٣].

كان ذلك هو الواقع فعلاً. وحتى عام ١٥٠٠م كان مفهوم تطبيق القانون بوصفه مسؤولية الدولة أمراً مستبعداً وغير متخيل. استمد شرطي لندن London bobby اسمه من رئيس الوزراء القادم روبرت بيل Robert Peel الذي أعطى للعالم أول قوة شُرطية

مدينية في عام ١٨٢٩م [٢٤]. قبل ذلك التاريخ لم يكن الجنتلمان الحصيف يخاطر بالخروج إلى شوارع لندن دون سيفه وخنجره ومسدسه.

وخارج أسوار المدينة كانت السيادة المطلقة للفوضى وانعدام القانون. فكان قطاع الطرق يجتهدون في عملهم، أحياناً في عصابات متجولة وأحياناً فرادى، وهم يتمتعون بما يقترب من الحصانة. والجنود عندما لم يكونوا منخرطين في حملات صليبية أو عداءات الأسر الحاكمة أو طموحات بابوية، كانوا كثيراً ما يزيدون أعداد قطاع الطرق. والأسوار وحدها كانت توفر للمدينة الحماية الفعالة من ضواحيها الخارجة على القانون. ونظراً لأن بناء الأسوار كان عملية مكلفة، عمدت المدن إلى حشر نفسها في أصغر فضاء ممكن. وكانت الشوارع أقرب إلى بالوعات ضيقة مفتوحة تعج بالناس والمرض، حتى أن علماء السكان الأوائل وثّقوا معدلات وفيات من الأمراض المعدية داخل الأسوار ضعف ما كانت عليه خارجها.

كان معظم الناس يعيشون في قرى صغيرة جداً ويعملون في حقول صغيرة مجاورة. ولم يقم المزارعون بإزالة الغابات المليئة بالذئاب حتى عام ١٥٠٠م. وكان الجميع، من الأطفال إلى المسنين، يمارسون الأعمال الحقلية الشاقة التي تقصم الظهر، عادة دون استخدام المحاريث. وحتى عام ٩٠٠م كان الفلاح الفذ هو الذي يستطيع أن يجهّز الخيول والثيران بالأطواق لأعمال الحقل.

بلغت مساكن القرون الوسطى درجة من القذارة لا يمكن تخيلها. وصفها أعظم إنسانيي عصر النهضة إرازموس من روتردام على النحو التالي:

> كانت كل الأرضيات تقريباً من الطين والسمار المأخوذ من المستنقعات، وكانت تعاني الإهمال في تجديدها لدرجة أن الأساس كان يدوم عشرين سنة في بعض الحالات، وكانت تأوي تحتها البصاق والقيء وشراب الكلاب والإنسان والبيرة ... وبقايا الأسماك وقذارات أخرى لا تحصى. ولذلك فعندما يتغير الطقس كانت تتصاعد روائح أعتبرها غير صحية[٢٥].

كانت الأسر تنام مجتمعة على سرير واحد قذر، وكانت المداخن غير معروفة تقريباً. ولذلك كان السخام يغطي جدران كل الأكواخ، ما عدا الجديد منها. وكانت قلة المنافس الملائمة تتسبب في حرائق منزلية تقتل أعداداً كبيرة من القرويين، خاصة النساء، اللاتي علاوة على ارتدائهن ملابس سريعة الاشتعال، كن يستعملن حُفَراً ومواقد تُشعَل بالخشب.

تصف الفقرات القليلة السابقة ظروف الفلاحين الذين كانوا أثرياء نسبياً. في حين كان الناس الأقل حظاً لا يمتلكون مأوى في بعض الأحيان. وفي مجتمع حد الكفاف فيما قبل العصر الحديث كانت المجاعة والطاعون يطرقان الأبواب دائماً. وفي أوقات المجاعة الحادة لم يكن أكل اللحم البشري نادر الحدوث، فكان المسافرون يُقتَلون من حين لآخر من أجل لحمهم، بل وتوجد تقارير حتى عن مهاجمة المحكوم عليهم بالشنق لأكلهم[٢٦].

كان الوباء يغمر القارة بانتظام. وقد وقعت أشهر الحوادث في عام ١٣٤٧م، عندما رسا أسطول جنوى التجاري في ميسينا Messina عند رأس الحذاء الإيطالي[١٦].

كان معظم بحارة الأسطول ميتين أو يحتضرون بسبب مرض جديد غريب، عُرِف لاحقاً بالطاعون الدبلي. وفي غضون بضعة عقود قتل هذا الطاعون واحداً من كل ثلاثة أوروبيين تقريباً.

غياب العقلانية العلمية فيما قبل العصر الحديث

تبدو عبارة "الفصل بين الكنيسة والدولة" اليوم إحدى العبارات الرنانة من عصر الآباء المؤسسين الذين تقتصر صلتهم بالحداثة على المعالجة القضائية لقضايا هامشية مثل

(١٦) يشبه امتداد أرض إيطاليا بين المياه من الشرق والغرب والجنوب واليابسة الأوروبية من الشمال الحذاء عالي الساق أو ذي الرقبة (البوت) يقع أعلاه إلى الجنوب وأسفله إلى الشمال [المترجم].

الصلاة في المدرسة وعروض أعياد الميلاد العامة. كانت الكنيسة في أوروبا ما قبل الحديثة تخترق كل الفضاءات، فكانت "نسيج الحياة في القرون الوسطى وقانونها، وكانت مطلقة السلطة وقهرية. وكانت تؤكد على مبدأ أن حياة الروح والآخرة أسمى من هذا العالم، وقد افترق عنها العالم الحديث في ذلك، بغض النظر عن إيمان بعض المسيحيين المعاصرين بهذا المبدأ"[٢٧].

كان استحواذ رابطة الكنيسة/الدولة على جيفرسون وماديسون[١٧] نابعاً من تغلغل الدين المنظم في العالم ما قبل الحديث. غير أن الفصل بين الكنيسة والدولة، للمفارقة، فكرة ضمنية في المسيحية منذ أيامها الأولى: "اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله" كما يقول السيد المسيح للفريسيين [١٨][٢٨]. لكن تحويل هذا الفصل إلى واقع معاش استغرق، مع ذلك، وقتاً بدأ من اعتناق قسطنطين للمسيحية، ومن ذلك الحين أخذت الدولة تمطر ممثلي الله الدنيويين بالأراضي والثروات. وكلما زادت الكنسية غنى زادت فساداً وانحلالاً.

تستخدم كلمات هرطقة وتجديف وكفارة[١٩] اليوم عادة في سياق ساخر، بينما كانت في السنوات الخمسمائة السابقة لعام ١٦٠٠م تبث الرعب في كل النفوس الأوروبية. ووصف هوبز للحياة في حالة الطبيعة بأنها "منعزلة ومقفرة وقذرة ووحشية وقصيرة"

---

(١٧) جيمس ماديسون James Madison (١٦ مارس ١٧٥١ إلى ٢٨ يونيو ١٨٣٦) أحد الآباء المؤسسين للأمة الأمريكية، والرئيس الرابع للجمهورية. سيرد المزيد عن أفكاره وأعماله في مواضع لاحقة من الكتاب [المترجم].

(١٨) الفريسيون Pharisees (بمعنى المنعزلون) كانوا في أزمان مختلفة حزب سياسي أو حركة اجتماعية أو مدرسة فكرية داخل الجماعة اليهودية في أثناء فترة المعبد الثاني في عهد الأسرة الحشمونية بعد الثورة المكابية، كانوا على خلاف دائم مع الصدوقيين الذين أنكروا القيامة والملائكة والأرواح، والفريسيون كانوا عامة الشعب اليهودي، وكان منهم الكتبة والأحبار. قرّعهم يسوع المسيح مرات كثيرة على كذبهم وتمسكهم بالألفاظ دون المعنى [المترجم].

(١٩) الكفارة أو العمل التكفيري auto da fe عقوبة ينزلها الآثم بنفسه، خاصة بتوجيه من الكاهن، تعبيراً عن توبته، لكنها ترتبط في الخيال العام بالإعدام حرقاً على الخازوق، كما مورست كثيراً من جانب محاكم التفتيش الأسبانية والبرتغالية [المترجم].

يصف بدقة الوجود الدنيوي في القرون الوسطى، حيث كانت المكافأة النهائية للإنسان لا تأتي إلا في الآخرة. وكان سخط السلطات الدينية يمكن أن يؤدي إلى حرق المرء على كومة خشب متقدة، لكن هذا العقاب، مع ذلك، يهون أمام الميتات المريعة التي كانت تبتدعها محاكم التفتيش المختلفة. كانت أشنع أدوات التعذيب هي "العروسة الحديدية القديمة"، وهي عبارة عن إطار حديدي غريب كان يَقْحِم ببطء مئات المسامير في جسم الضحية، ولا يترك الشخص إلا بعد أن يتحول إلى كتلة دموية حية، ليلقى بعد ذلك في حفرة من السكاكين الدوارة[٢٩]. ومع ذلك فقد كانت أكثر الطرق إيلاما للخروج من الدنيا أرحم من الخلود في الجحيم[٣٠].

لكن ما المخالفات التي كانت تجلب على صاحبها هذا المصير المروع؟ أي شيء يغضب سلطة الكنيسة أو يتحداها، بما في ذلك، من بين أشياء أخرى، التشكيك في سلطتها ومعتقداتها، والأهم من ذلك ثروتها. كانت الخروقات والمخالفات ملتوية جداً. ففي أوائل القرن السادس عشر، على سبيل المثال، استنتج عالم الفلك البولندي ميكولاي كوبرنيك Mikolaj Kopernik، المعروف الآن بالاسم اللاتيني كوبرنيكوس، أن الأرض ليست مركز الكون، وإنما تدور هي نفسها حول الشمس. كان يمكن التسامح مع هذه الهرطقة، لو نشرت باللغة العالمية للعلماء آنذاك: اللاتينية. فنظرا لأن هذه اللغة القديمة لم تكن مستخدمة خارج النخبة الكنسية والمَلكية والتجارية الحاكمة، فلم تكن هذه المجادلات تصل إلى طبقة الفلاحين. وقد كان كوبرنيكوس من الحكمة بحيث لم يتجاوز خط اللاتينية/العامية، ولذلك تسامح الفاتيكان معه. وحتى علماء عصره الأكثر استنارة، مثل إرازموس وتوماس مور، انتقدوا رؤيته الجديدة. ولعله من اللافت للانتباه أن كوبرنيكوس استُقبل بترحاب أقل في شمال الألب، بل طالب كثيرون من زعماء الإصلاح، منهم مارتن لوثر[٣١]، بقتله.

---

(٣٠) على أساس أن هذه العقوبة في الدنيا تسقط العقاب في الآخرة [المترجم].

(٣١) مارتن لوثر (١٠ نوفمبر ١٤٨٣ إلى ١٨ فبراير ١٥٤٦) قس وعالم لاهوت ألماني، كان من قادة حركة الإصلاح الديني، ومؤسس الإصلاح البروتستانتي [المترجم].

لكن عندما تهور الفيلسوف الإيطالي جوردانو برونو Giordano Bruno بنشر كتيبات تناصر هرطقات كثيرة، منها تأييده للنظام الكوبرنيكي، باللغة العامية، قضت محكمة التفتيش بالفاتيكان بحرقه على الخازوق. وفي العقود التالية خاضت الكنيسة حربها الأخيرة ضد مركزية الشمس، وفي آخر المطاف أوقفت نصيرها المعتمد غاليليو أمام محكمة التفتيش. لكن الأخير تراجع عن آرائه عندما عُرِضت عليه أدوات التعذيب.

كانت الكنسية في أواخر القرون الوسطى تحوز نوعا من السلطة الأيديولوجية المطلقة، ربما حسدها عليها ستالين أو هتلر أو بول بوت[٢٢]. وكما يقول المثل فإن تركز السلطات مفسدة، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة، لذلك كان الضعف في مركز الكنيسة واضحا حتى لأكثر الناس إيمانا بحلول عام ١٥٠٠م. فأصبحت الرشوة وبيع المناصب الكهنوتية والابتزاز كلمات السر في الحياة الإكليركية. وبلغ الانحطاط ذروته في أثناء بابوية أفينيون[٢٣] حيث أصبح "كل شيء تملكه الكنيسة أو تقدمه يباع ويشترى، من قبعة الكاردينال حتى الآثار المقدسة التي يحملها الحجاج"[٣٠]. وكدّس الأساقفة والكاردينالات ثروات طائلة من بيع العشور وصكوك الغفران. وأظهر جون الثاني والعشرين، الذي ارتدى التاج البابوي من عام ١٣١٦م إلى عام ١٣٣٤م، نهما أسطوريا للأقمشة الذهبية والفراء. وكانت أسر النبلاء تشتري التعيينات في الكهانة للأطفال الصغار، ولذلك لم يكن غريباً أن يصل بعضهم إلى مرتبة رئيس الأساقفة في

---

(٢٢) بول بوت Pol Pot أو سالوث سار Saloth Sar (١٩ مايو ١٩٢٥م حتى ١٥ أبريل ١٩٩٨م) كان قائد الحركة الشيوعية الكمبودية المعروفة باسم الخمير الحمر، تولى رئاسة وزراء كمبوديا لثلاث سنوات ١٩٧٦م- ١٩٧٩م حاول فيها أن ينظف البلاد من المستغلين، مما أدى إلى قتل ما يناهز مليون ونصف مليون إنسان. هرب بعد الاجتياح الفيتنامي لبلاده إلى منطقة الغابات في شمال غرب كمبوديا. وظل يعمل مع بقايا الخمير الحمر في منطقة الحدود الكمبودية التايلندية التي أخضعوها لسيطرتهم واعترفت بهم الأمم المتحدة اسمياً بأنهم الحكومة الشرعية لكمبوديا [المترجم].

(٢٣) أفينيون Avignon مدينة في إقليم فوكلوز بجنوب شرق فرنسا تشتهر بقصور الباباوات، عاش فيها الكثير من الباباوات الحقيقيين والمزيفين، خاصة في القرن الرابع عشر [المترجم].

عمر العشرين[٢١]. ومن بين ٦٢٤م هبة بابوية للشرعية مُنِحت في عامي ٤٣م-١٣٤٢م، ذهب ٤٨٤ منها إلى أبناء رجال الدين. وفي إنجلترا القرن السادس عشر كان رجال الدين يُتهمون بربع الجرائم الجنسية كلها تقريباً، أكثر عشر مرات من نسبتهم من السكان.

تنامت المعارضة ضد فساد الكنسية تدريجياً، وإن ظلت هادئة ومتفرقة نسبياً، خاصة في أجواء نهاية الحضارة التي تلت تفشي الطاعون في القرن الرابع عشر. فقد دعت طائفة البيغارد[٢٤]، وهي حركة ثقافية شعبية مضادة، إلى مسار للخلاص متحرر من رجال الدين، والحق في ممتلكات النبلاء والكنيسة، والجنس المشاع. لكن الكنيسة والطبقة الحاكمة لم تنظرا بعين العطف لأعضاء هذه الطائفة، حيث أحرق الكثير منهم على الخازوق. ومع ذلك تقدم قصيدة "رؤية بيرز الحارث"[٢٥]، وهي أكثر القصائد شعبية من هذه الفترة، بياناً مصوراً للنقص الإنساني في القرون الوسطى، بينما تضفي الفخر والكمال على رجال الدين.

وضع أستاذ أكسفورد المتألق بالقرن الرابع عشر جون ويكلف John Wyclif أساساً أكثر صلابة للمعارضة، وقد وجدت معارضته لهيمنة الكنيسة ملاذاً في عداء إنجلترا القديم مع روما. وقد نجح ويكلف، الذي يعتبر السلف الفكري المباشر لمارتن

---

(٢٤) البيغارد Beghards جماعة دينية رومانية كاثوليكية غير إكليركية نشطت في القرن الثالث عشر والرابع عشر وكانت تعيش في جماعات شبه رهبانية فضفاضة، لكن دون نذور رسمية. تأثروا بالتعاليم الكاثارية وإخوان الروح الحرة التي راجت بالقرب من مدينة كولونيا الألمانية في نفس الوقت تقريباً، وقد رفضتها الكنسية واعتبرتها جماعة مهرطقة [المترجم].

(٢٥) رؤية بيرز الحارث Piers Plowman قصيدة سردية مجازية لمؤلفها وليام لانغلاند William Lagland تعتبر، إلى جانب أعمال تشوسر، من بواكير الأدب الإنجليزي، تصف توق الراوي إلى الحياة المسيحية الحقة من المنظور الكاثوليكي للعصور الوسطى، وذلك عبر سلسلة من رؤى الأحلام وفحص حياة ثلاث شخصيات مجازية هي: دويل Dowel (Do-Well) ودوبت Dobet (Do-better) ودوبست Dobest (Do-best)، وهي أسماء تكشف عن المغزى الاجتماعي والأخلاقي للقصيدة [المترجم].

لوثر، في "تسمير أطروحته مجازيا في الجدار" - بتعبير باربرا تشمان - بكتابه "الحكومة المدنية" De Civili Domino. اقترح هذا الكتاب مصادرة ممتلكات الكنيسة وإقصاء الكهنة عن الحكم. وانتهى الأمر بويكلف، كما فعلت طائفة البيغارد، إلى إنكار مذهب استحالة الجوهر[٢٦] وضرورة الكهانة ذاتها. وقد أكسبه ذلك سخط رجال الدين الإنجليز والرومان الذين هاجموا كثيراً من بدعه.

ترجم ويكلف الكتاب المقدس إلى اللغة العامية. ومن حسن حظه أنه كان يعيش في عصر ما قبل غوتنبرغ، مما جعل جريمته تمر دون التضخيم الذي تُحدِثه المطبعة. لكن في عام ١٣٨١م طردته كلية باليول Balliol College التي كان يعمل مدرساً فيها، وهو عقاب بسيط نسبياً. لكن أكسفورد بذلك أضرت بنفسها أكثر مما أضرت بواكليف. فقد دخلت الجامعة في قرنين من الانحطاط، بينما ظل ويكلف مبشراً فعالاً ومؤثراً جداً حتى مات لأسباب طبيعية بعد ذلك بثلاث سنوات[٢٧]. وبعد إبعاده، تحول أتباعه المنسوبون إليه - الويكلفيون - إلى العمل السري. ومن هنا بدأت التقاليد الإنجليزية البيوريتانية/المنشقة الطويلة.

قدمت قضية تنديل Tyndale سنداً للكتاب المقدس الذي ترجمه ويكلف إلى الإنجليزية في فترة ما بعد غوتنبرغ. فقد جاء اختراع يوهانز غوتنبرغ من مدينة مينز بألمانيا للمطبعة في عام ١٤٥٧م ليعطي صوتاً عالياً للهراطقة. في بادئ الأمر كان وليام تنديل عالم الكلاسيكيات بكامبردج وأكسفورد على وفاق مع هنري الثامن، حيث كانت آراؤه حول أسبقية السلطة المَلكية على سلطة الكنيسة تروق للأخير. وكما فعل ويكلف (ومن قبله الكثير من الرهبان المشاكسين)، قام تنديل في عام ١٥٢٥م بترجمة العهد الجديد إلى اللغة الإنجليزية. لكن في فترة القرن ونصف التي فصلت تنديل عن ويكلف كانت المطبعة قد غيّرت كل شيء، فضخّمت هرطقة تنديل ألف ضعف. حدث ذلك

---

(٢٦) مذهب استحالة الجوهر transubstantiation عقيدة مسيحية مؤداها أنه في القربان المقدس يتحول خبز القربان وخمره إلى دم المسيح وجسده [المترجم].

في وقت لم يكن رجال الدين فيه يطيقون فكرة أن يكون بمقدور الفلاحين غير المتعلمين أن يقرؤوا الكتاب المقدس ويناقشوه، إذ لم يكونوا يتوقعون غير الأمية والطاعة العمياء من ٩٠٪ من السكان.

لم تتمكن أيدي الناشرين في إنجلترا بلد تنديل من الوصول إلى مخطوطة الترجمة. فقد فرّ تنديل إلى ألمانيا، حيث وجدت ترجمته طريقها إلى الطباعة في كولونيا قبل أن يكتشف رجال الدين المحليين أمرها. وبعد أن نجح تنديل أخيراً في معقل الديدان البروتستانتي، أرسل ستة آلاف نسخة من ترجمته إلى بريطانيا، حيث التهمها القراء التهاماً. لكن تحت ضغط من هنري الثامن، الذي كان لا يزال تقياً حتى ذلك الوقت، قام رجال الدين في كولونيا بوضع تنديل في السجن لستة عشر شهراً، ثم حاكموه بتهمة الهرطقة وشنقوه على الملأ. كل ذلك لنشره الكتاب المقدس باللغة الإنجليزية. (كان ذلك قبل أن يختلف هنري الثامن مع الكنيسة على إبطال زواجه من كاثرين من الأرجونية).

توجد اليوم ١٧٥ نسخة من ترجمة ويكلف للكتاب المقدس، وهو ما يؤكد أنه قد أنتجت عدة مئات منها على الأقل. كان امتلاك نسخة واحدة منها يكفي لإدانة القارئ بالهرطقة. أما امتلاك عدة نسخ فكان يجلب على مرتكبه عقوبة الحرق، لكن نظراً لأن هذه النسخ كانت تكتب يدوياً، فقد كان خطر الكفارة مستبعداً نسبياً. وقد جاء استخدام تنديل للمطبعة ليرفع الرهان على كلا الجانبين، حيث كان الهراطقة الذين استخدموا المطبعة يلعبون بالنار مجازياً وحرفياً على حد السواء[٣٣].

لكن مارتن لوثر، حين استخدم مطبعة غوتنبرغ أخيراً كسلاح لهدم سلطة الكنيسة، استعاض عن هذه الأخيرة بطغيان لا يقل قبحاً، وإن كان أقل فساداً. وعلى منوال هذه الحماسة البروتستانتية الجديدة، جاء دور جون كالفن في جنيف. وجّه مبشر متجول، يدعى جيلوم فاريل Guillaume Farel، دعوة إلى القس اللاجئ إلى المدينة الواقعة بجانب البحيرة التي دخلت حديثاً في البروتستانتية. لم يكن كالفن "دكتاتور" المدينة، كما يكثر

المؤرخون الحديثون في تصويره. فلم يكن الرجل غير رئيس المجلس الكنسي، وهو مجموعة تتكون بالدرجة الأولى من أشخاص غير إكليركيين، كانت مسؤولة عن حراسة أخلاق الجمهورية (لم تمنح جنيف الجنسية لكالفن إلا قبل خمس سنوات من وفاته). وعلى مدار السنوات الستة عشر لتوجيه كالفن، حكم المجلس الكنسي على تسعة وثمانين شخصاً بالموت، في الغالب بتهمة ممارسة السحر. غير أن ذلك لم يكن شاذاً بمعايير ذلك الزمن. فقد أعدمت الدول الكاثوليكية المجاورة أعداداً من الهراطقة أكبر بكثير، عادة بعد تعذيب قاسي جدا، وهو ما كانت السلطات في جنيف تتجنبه عموما. وربما كانت أشهر حادثة قضائية في ذلك العصر هي محاكمة جنيف في عام ١٥٥٣م التي قضت بإعدام المهرطق مايكل سيرفيتوس Michael Servetus لإنكاره الثالوث ومولد الطفل. وحين سُئل عن رغبته في المحاكمة في جنيف أو فرنسا، خرّ سيرفيتوس على ركبتيه ملتمساً العدالة الجنيفية.

تمثل ابتكار كالفن ومجلسه الكنسي في نسخة قبل حداثية من الدولة الشمولية التي تحاول أن تضبط حتى أخلاقيات مواطنيها وسلوكياتهم. فلم يكن ثمة شيء يعتبر صغيرا في نظر هذه المجموعة المرحة التي ينطبق عليها تماماً مصطلح "المديرون المدققون" micromanagers. من ذلك أنهم في عام ١٥٦٢م أرغموا الجنيفي المُسِن فرانسوا دي بونيفارد الذي ترمل مؤخراً على الزواج مرة ثانية من امرأة أصغر منه بكثير. وعندما بحثت الزوجة الجديدة عن حب شاب في عمرها، قضت المدينة بقطع رأس عشيقها وموتها غرقاً. وفي حادثة أخرى اكتشف المجلس الكنسي خمسة رجال مسنين لا يستطيعون أن يقدموا دليلاً كافياً على العقيدة البروتستانتية، فأمرهم المجلس بأن يستأجروا معلماً وأن يشرحوا تعاليم العقيدة أمام القداس العام التالي[٣٤].

حتى قبل أن يضمن تقسيم سلطة الحكم بين الملك والبرلمان والقضاء الحقوق الفردية وحكم القانون وحقوق الملكية، كان الانفصال بين الله وقيصر قد تكرس فعلاً. فقد اشتعلت الحروب الدينية عبر أوروبا على مدى قرنين تقريباً، بسبب الحماسة

الأيديولوجية، بين الكاثوليك والبروتستانت، وداخل البروتستانت أنفسهم. وقد استنزفت النزاعات المشاركين وأضعفتهم، وهو ما مهد الطريق لكل من الحكومات العلمانية المستقلة ورسالة التنوير الأكثر تسامحاً.

غياب أسواق المال الفعالة فيما قبل العصر الحديث

ينظر رجل الأعمال الحديث إلى التوفر السهل للمال - رأس المال - من الآخرين بوصفه أمراً بديهياً. فاليوم يمكن للشركات الكبيرة حسنة السمعة أن تحصل من أسواق السندات على قروض طويلة الأجل لتحسن نفسها وتتوسع بفائدة تزيد قليلاً عن ٥٪ سنويا، بل يمكن لرجال الأعمال الصغار المضمونين أن يدفعوا فائدة أقل من ذلك.

كان الناس يقرضون ويقترضون، حتى قبل أن تظهر النقود، قبل خمسة آلاف سنة. وعلى مدى آلاف السنين كانت قروض الحبوب والماشية تُعطى بفائدة، حيث كان المكيال أو العجل الذي يُقرَض في الشتاء يعاد ضعفين في موسم الحصاد. ولا تزال هذه الممارسات منتشرة في المجتمعات التقليدية.

ترجع أسواق الائتمان القديمة إلى فترات عميقة في التاريخ. فكثير من محتويات أقدم سجل تاريخي من الهلال الخصيب - سومر وبابل وآشور - تتعلق بإقراض المال. فكانت قوانين حامورابي البابلية الشهيرة - أول مجموعة شاملة معروفة من القوانين - تتعامل مع الصفقات التجارية. ويكفينا هنا التدليل ببضعة أمثلة قديمة. كان سعر الفائدة المعتاد على قرض من الشعير في سومر، من عام ٣٠٠٠م إلى ١٩٠٠م قبل الميلاد، يبلغ ٣٣٪، بينما كان السعر المقابل على قرض من الفضة يبلغ ٢٠٪. يعكس الفرق بين النسبتين كون قروض الشعير تنطوي على مخاطرة أكبر من قروض الفضة، لأن الأخيرة لا يمكن أن تستهلك أو تفسد، وكذلك لأنه من غير الوارد أن يفشل "محصول الفضة"[٣٥].

كانت أسعار الفائدة العالية إلى هذا الحد تعوق المشروعات طويلة الأجل، حيث إن سعرا قدره ٢٠٪ سنوياً كان من شأنه أن يضاعف المقدار المقترض في أقل من أربع سنوات. وفي ظل هذا العبء المستقبلي الساحق، لا يمكن لرجل أعمال عقلاني أو شركة أن تقترض لتمويل مشروع لن يثمر ويصبح مربحاً لخمس أو عشر سنوات، كما هو الحال مع معظم المشروعات التجارية الكبيرة.

يرى المؤرخ الاقتصادي ريتشارد سيلا Richard Sylla أن أسعار الفائدة تعكس بدقة صحة المجتمع، لدرجة أن الخط البياني لأسعار الفائدة على مر الزمن يمثل "منحنى الحمى" لهذه الأمة أو تلك. ففي أوقات التقلبات ترتفع الأسعار بسبب غياب الإحساس بالأمن والثقة العامين. وعلى مدار التاريخ الطويل أظهرت كل الحضارات القديمة الكبرى نمطاً لأسعار الفائدة على هيئة حرف U، حيث كانت الأسعار عالية في أول تاريخها، تلا ذلك انخفاض الأسعار ببطء، مع بلوغ الحضارات النضج والاستقرار، مما أنتج أسعاراً منخفضة عند ذروة نمو هذه الحضارات، وأخيراً مع انحطاطها تحدث عودة إلى الأسعار العالية. من ذلك، على سبيل المثال، ما شهدته الإمبراطورية الرومانية في أوجها في القرنين الأولين بعد الميلاد من أسعار فائدة منخفضة: ٤٪ فقط. ينطبق هذا التسلسل على المديين المتوسط والطويل فقط، حيث تحدث تقلبات كثيرة أقصر أمداً. من ذلك أنه حتى في أثناء صعود الرومان في القرنين الأولين حافظت أسعار الفائدة على مستواها المرتفع لفترات قصيرة عند مستوى ١٢٪ في أوقات الأزمات.

ارتفعت المعدلات في الإمبراطورية الرومانية فجأة، بعد انهيار روما (يؤرخ عادة في عام ٤٧٦ بعد الميلاد). وبعد أكثر من قرنين بقليل تلقت التجارة الغربية ضربة مدوِّخة أخرى، تمثلت في هجرة النبي محمد ﷺ وظهور الإمبراطورية العربية التي اجتاحت

معظم شبه الجزيرة الأيبيرية. والعرب، من خلال السيطرة على مضيق جبل طارق، قطعوا تجارة البحر الأبيض المتوسط فعلياً[٢٧].

يختفي الأثر التاريخي لأسعار الفائدة في العصر الروماني المتأخر، ولا يظهر ثانية إلا بعد ألف عام تقريباً في إنجلترا. وفيها سجلت أسعار تصل إلى ٤٠٪ في القرن الثاني عشر، وفي إيطاليا كان متوسط الأسعار حوالي ٢٠٪ في وقت متأخر من نفس القرن. فيما ظهر الضوء الأول لمستقبل أكثر ازدهاراً في هولندا، وفيها انخفضت المعدلات إلى ٨٪ منذ وقت مبكر، تحديداً عام ١٢٠٠م.

تكشف أسعار الفائدة العالية إلى هذا الحد عن الغياب الفعلي للأسواق المالية، وهو ما كان يشكل قيداً تجارياً واقتصادياً، ظل نافذاً لقرون. فكما خنق المذهب الديني التقدم الفكري، اعيقت التجارة اليومية بسبب غياب أسواق رأس المال. وقد لعب التحريم المسيحي للإقراض دوراً في ذلك. يرجع هذا التحريم إلى الكتاب المقدس الذي يقول في سفر الخروج ٢٥ : ٢٢ : "إن أقرضت مالا لشعبي الفقير الذي عندك، فلا تكن له كالمرابي". وكان من رأي القديس أوغسطين "أن الأعمال التجارية إثم في ذاتها"، بينما قال القديس جيروم إن "التاجر لا يمكن أن يرضي الله"[٣٦].

وفي عام ٣٢٥م حرم مجمع نقية[٢٨]، وهو أول اجتماع سري للكنيسة، الإقراض من جانب رجال الدين، وبحلول عام ٨٥٠م بدأت الكنيسة تُحرِم الإقراض من غير رجال الدين. غير أنه لم يكن هناك طلب كبير على رأس المال في أسواق أوروبا التجارية المكبّلة.

---

(٢٧) تتعارض هذه الرؤية لتأثير الهيمنة العربية على البحر المتوسط حتى القرن الثاني عشر مع الرؤية التي تقدمها كتب مثل كتاب "الجذور العربية للرأسمالية" الذي أشار إليه المترجم في تقديمه. فضعف التجارة الأوروبية حتى هذا القرن كان ناتجاً عن عوامل أوروبية داخلية، مثل الإقطاع والطاعون والفقر وسيطرة الكنيسة وعوامل كثيرة أخرى، بينما جاءت الهيمنة العربية على البحر المتوسط لتفتح أفاقاً للتجارة الدولية وتزوّد أوروبا بأدوات اقتصادية استفادت منها في الخروج من عصورها المظلمة [المترجم].

(٢٨) مجمع نقية هو أول المجامع المسكونية السبعة، وفقاً للكنيستين الرومانية والبيزنطية، دعا إليه الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول في عام ٣٢٥م للوصول إلى إجماع حول القضايا التي يختلف عليها العالم المسيحي، مثل طبيعة المسيح وعلاقته بالله. سُمي بهذا الاسم نسبة إلى المدينة التي عقد فيها، وهي العاصمة الثانية لولاية بيثينية، وتقع إلى الشمال الغربي من آسيا الصغرى، يوجد في موقعها حالياً قرية أسنيك التركية [المترجم].

وتدريجياً اكتسب التضييق على الإقراض قوة متزايدة. وفي عام ١١٣٩م اعتبر المجمع الثاني لكنيسة القديس لاتيران[٢٩] الرهونات ربا. أما ذروة التأجج الاكليركي المعادي للرأسمالية، الذي لا يوجد له مثيل إلا في حقبة لينين وماركس، فقد حدث في منتصف القرن الثالث عشر، حين أنعش القديس توما ألاكويني الفكرة الأرسطية التي تعتبر كل النشاط التجاري واسع النطاق إثماً في ذاته[٣٠].

يشكل الإقراض جزءاً من الذخيرة الإنسانية المكتسبة، تماماً مثل تعاطي المخدرات والكحول، ويصعب القضاء عليه بالتشريع مثلهما. فحتى في أوج تحريم الربا كانت محلات الرهونات تصطف في شوارع القرون الوسطى، حتى إن هولندا أجازت المقرضين، الذين كانوا يزودون الأمراء الحاكمين برأس المال بانتظام. وظل اليهود يمارسون الإقراض بحرية لأن الكنيسة كانت لا تستطيع أن تحرمهم. وحتى بعد عام ١٥٧١م الذي رفع فيه المجمع الخامس لكنيسة لاتيران تحريم الربا، لم يكن المستثمرون يأمنون على حدوث نشاط تجاري نشط[٣١].

غياب النقل والاتصالات الفعالة فيما قبل العصر الحديث

على مدار الألف سنة التي تلت انهيار الإمبراطورية، ظلت الطرق الرومانية البالية أفضل الطرق السريعة في أوروبا. يصف المؤرخ لورنس باكارد Laurance Packard ذلك على النحو التالي:

> كان الناس في العصور الوسطى "متجمدين" في أماكنهم، وحتى في زمن الحملات الصليبية لم يكونوا يسافرون إلا قليلاً جداً. وقد أدى الجهل الشديد بالجغرافيا

---

(٢٩) مجامع لاتيران مجالس أو سندوسات عقدتها الكنسية الكاثوليكية في روما في القصر اللاتيراني المجاور للباسيليقا اللاتيرانية [المترجم].

(٣٠) بينما اعتبر أرسطو أعمال المزرعة أو المنزل أعمالاً صغيرة شريفة، أدان كل من تجارة التجزئة والإقراض. انظر Politics, III, 23.

والأماكن الأبعد من مسقط رأس المرء إلى استشراء الخوف من المناطق الغريبة والغرباء، خوفاً بلغ حد الخرافة. ثمة أخطار حقيقية مثل اللصوص والبارونات والقراصنة وسوء الطرق - أو عدم وجود الطرق أصلاً - والجسور المتهاوية - أو عدم وجود الجسور أصلاً - كانت عوائق مؤثرة أمام التجارة. وعلاوة على ذلك كان كل سيد إقطاعي يجمع مكوسا على المرور في أرضه، وقد زادت هذه المكوس من تكلفة السلع لدرجة أعاقت نقل الحبوب من أراضي الوفرة إلى أراضي الندرة، لأن التكاليف كانت تأكل الربح أو ترفع السعر جداً لدرجة تعيق الجوعى عن دفع ثمنها[٣٨].

نبّه باكارد أيضاً إلى أن النقص الميكانيكي في النقل كان جزءاً من المشكلة فحسب. وبتعبير المؤرخ الاقتصادي إيلي هيكشر Eli Heckscher، فقد "كانت المكوس في العصور الوسطى العقبات الأكبر أمام التجارة". تنصرف كلمة "مكس" في العصر الحديث إلى الأجر المفروض على استخدام طريق مُحسَن أو التعريفة الحدودية. لكن قبل عام ١٨٠٠م كانت المكوس المصدر الفاضح الرئيس والتعسفي للدخل للكثير من الحكام المحليين الذين أقاموا مراكز لجباية المكوس عند نقاط اختناق حرجة، كالأنهار الصالحة للملاحة والشعاب، بحيث يتعذر على التجار الإفلات منهم[٣٩].

كان غياب الطرق في شمال أوروبا سيفاً ذا حدين. فهو من ناحية وفر الحماية لأسكندنافيا ومعظم ألمانيا من الغزو الروماني الدائم. لكنه، في المقابل، خنق كل أشكال التجارة في شمال الألب، خاصة في أسكندنافيا. وعلى مدار الألفية التي تلت انهيار روما ظلت الأخبار والسلع تنقل بسرعة السفن الشراعية البطيئة لذلك العصر: خمسة أسابيع من البندقية إلى القسطنطينية. وكان النقل إلى الوجهات الداخلية أكثر بطئاً وأقل كفاءة من ذلك، حتى إن اجتياز الطريق البري من البندقية إلى لندن كان يستغرق أربعة أسابيع. وكان معظم الفلاحين لا يتركون البلدات التي ولدوا فيها. ولم يكن ينجو من الرحلات البحرية الطويلة إلا الأشخاص الأكثر ثباتاً والأسعد حظاً،

ولم يكن يتحمل تكلفة توفير الخيول الضرورية للرحلات البرية الطويلة إلا الأثرياء. وحتى منعطف القرن العشرين، الذي شهد تطوير السيارة فورد تي Ford Model T، ظلت الغالبية الساحقة من الأمريكيين تعيش وتموت داخل عشرين ميلاً من مسقط رأسهم.

لم يكن النقص في النقل الملائم، قبل عام ١٨٠٠م ، يهدد التجارة وحسب، بل كان قاتلاً في حد ذاته. ففي العالم الحديث الذي يتيسر فيه نقل الغذاء بسهولة من مناطق الفائض إلى مناطق النقص، لم يعد فشل المحاصيل يتسبب في المجاعة. بينما كان من الوارد في العصور الوسطى أن تواجه بلدة كارثة، فيما تعيش جارتها في الوادي التالي في رخاء ووفرة، وهو ما كان ينطبق بشكل خاص على المناطق التي لم يكن يتوفر فيها نقل نهري أو بحري (في القرن العشرين كانت الدول الشيوعية بتدخلها في آليات السوق والنقل المتعارف عليها المموّن الأنجح في التاريخ للمجاعات الجماعية).

إن تكلفة السفر وما كان ينطوي عليه من خطر وعناء وبطء شديد قبل وصول قوة البخار يذهل الوعي الحديث. فحتى منتصف القرن التاسع عشر كان النقل الضخم على القارة الأوروبية في أحسن حالاته حين يقطع عشرين ميلاً في اليوم. فكان الأمر يستغرق عادة ستة أسابيع تقريباً لكي تجتاز السلع الأميال الـ٢٩٠ من باريس إلى ليون، بمعدل أقل من عشرة أميال في اليوم. أما المسافرون بالمركبات فكان من علامات سعدهم أن يقطعوا المسافات بضعفي هذا المعدل.

كانت نفقات السفر مفزعة. فإجرة المركبة في عام ١٨٢٠م من نيويورك إلى غرب أوهايو، وهي تخوم الحضارة في ذلك الوقت، كانت تصل إلى ٨٠ دولاراً، أي أجر شهرين. وفي إنجلترا كانت رحلة الستين ميلاً تكلف جنيهاً إسترلينياً، أي أجر أسبوع تقريباً (كان بمقدور المسافر أن يوفر نصف الأجرة تقريبا لو كان مستعداً لأن يعْلَق على

جانب المركبة). والأثرياء فقط كانوا يتحملون تكلفة المركبة التي تجرها أربعة من الخيل.

كانت النفقة الرئيسة للسفر تكمن في التغيير المتكرر للجياد الذي كان ضرورياً في المسافات الطويلة. وأخيراً كانت الكثافة العالية للجياد والثيران والبغال في المدن المزدحمة تتسبب في مشكلات تتعلق بالمنظر الجمالي والنظافة والصحة، وهي أمور نسيناها لحسن الحظ منذ وقت طويل.

كان الأمان في السفر فيما قبل العصر الحديث أحد الاعتبارات الأساسية. لم يختف قُطاع الطرق من إنجلترا حتى منتصف القرن الثامن عشر، بينما ظلت سرقة المركبات حدثاً متواتراً جداً في القارة حتى القرن التاسع عشر. وقد سجل المسافرون الإنجليز في إيطاليا أنه حتى عام ١٨١٧م كان المسافرون بالمركبات كثيراً ما يُقتَلون ويُجرَدون من ثيابهم ثم يُحرَقون في عرباتهم. وكان تهديد السرقات الصغيرة يلوح دائماً، وكانت حوادث المركبات شائعة جداً. من ذلك أن مسافراً واحداً بمركبة بين مدينة نيويورك وسينسناتي سجل في عام ١٨٢٩ ما لا يقل عن تسعة حوادث انقلاب على طرق وعرة مرصوفة بجذوع الشجر. وكان وقوع الضحايا حدثاً يومياً.

كان عناء الرحلات الطويلة بالمركبات أو السفن الشراعية يضني حتى أصلب المسافرين وأجرأهم. وفي ذلك وصف الرسام الإنجليزي ترنر J. M. W. Turner رحلة قام بها في إيطاليا عام ١٨٢٩م على النحو التالي:

> بدأ الثلج ينهمر في فولينو Foligno. وأخذت المركبة، بسبب وزنها، تنزلق في كل الاتجاهات. أخذت ملابسي تبلل أكثر فأكثر، إلى أن انزلقت المركبة عند سار فالي Sarre-Valli في قناة، وأصبحتَ في حاجة إلى ستة ثيران لإخراجها، فأرسلنا مَنْ قطع ثلاثة أميال إلى الوراء ليأتي بها، كلفنا ذلك أربع ساعات، وبذلك تأخرنا ١٠ ساعات عن الوقت الذي كان يفترض أن نصل فيه إلى ماسرتا Macerta، وهكذا وصلنا بولونيا أخيراً في حالة من الجوع والتجمد. وفيها بدأت مشكلاتنا، بدل أن تنتهي. عبرنا مونت سينس Mont Cenis على زلاجة، حيث عسكرنا على

الثلج مع إشعال النيران لثلاث ساعات على مونت تارات Mont Tarrat، بينما كانت المركبة تُستخرَج وتُصلَح. وفي نفس الليلة اضطررنا ثانية لأن نمشي في الثلج حتى ركبنا في انجراف جليدي سقط مؤخراً[٤٠].

كان الناس والسلع والمعلومات، منذ بداية التاريخ المسجل، يتنقلون بسرعة الحصان أو السفينة الشراعية، واستمرت هذه الحال حتى فجر العصر الحديث. وقد جاء تسخير المحرك البخاري للاستخدام في السفن وقاطرات السكك الحديدية في أواسط القرن التاسع عشر، وإزالة الحكومات الوطنية القوية لمراكز جباية المكوس ليوفرا آخر العوامل الأربعة الضرورية للنمو الاقتصادي. وقد ألهب تطور السكك الحديدية والسفن البخارية والتلغراف الرخاء أبعد كثيراً من الخيالات المحمومة للحالم الأكثر تفاؤلاً فيما قبل العصر الحديث.

الأرض والعمل ورأس المال

ظل رفاه الإنسان المتوسط جامداً فيما قبل عام ١٥٠٠م. وقد أصبحت جذور ذلك الجمود واضحة الآن. أولاً وقبل كل شيء، لم يكن ثمة حافز لخلق الثروة، لأنها لم تكن في مأمن من النهب من جانب الأرستقراطية الإقطاعية أو الدولة أو الكنيسة أو المجرمين العاديين. ثانياً لم يكن الإنسان الأوروبي يجرؤ على التفكير بطريقة إبداعية أو علمية، لأن الأفكار الأصيلة كانت تحكم على أصحابها غالباً بالنسيان، في هذا العالم وكذلك في الآخرة. ثالثاً حتى لو أمكن تخيل الاختراعات والخدمات المولّدة للثروة، فلم يكن رأس المال اللازم لتطويرها متوفراً. وأخيراً فحتى لو أنتجت هذه الاختراعات بعدد كبير، فلم يكن بمقدور مخترعيها أن يعلنوا عن سلعهم وأن ينقلوها بتكلفة رخيصة إلى المستهلكين في المدن البعيدة.

جرت العادة على أن يحلل الاقتصاديون الثروة إلى ثلاثة "مُدخلات": الأرض والعمل ورأس المال. ويرى الاقتصاديون أن فهم طريقة عمل هذه المدخلات

الكلاسيكية وتفاعلها يكشف الجذور التاريخية للرخاء العالمي. فلكي تبني مزرعة أو مصنع أو شبكة أقمار صناعية، لا بد من أن تتوفر المدخلات الثلاثة، ومدى إنتاجية كل واحد من هذه العوامل هو ما يميز الرجل الغني عن المفلس.

إن المهم بالنسبة لرجل الأعمال ليس مدى إنتاجية المنطقة المتوسطة من الأرض أو العامل أو القرض المتوسطَين، بل مدى إنتاجية قطعة الأرض الحدية والموظف والقرض الحديين. يشير المصطلح "حدي" marginal إلى تلك الأرض أو العامل أو رأس المال المتوفر لك في الوقت الحاضر. فليس من المفيد أن تخطط للزراعة في منطقة زراعية، إذا كانت كل الأراضي الجيدة قد أخذت فعلاً، ولم تبق إلا المناطق رديئة الجودة، أو أن تبني مصنع منسوجات في منطقة يتوفر فيها العمال المهرة، لكنهم جميعاً يعملون وراضون عن وظائفهم، أو أن تخطط منطقة سكنية في مكان تنخفض فيه أسعار الفائدة على الرهونات الحالية، بينما ارتفعت الأسعار على القروض الجديدة.

من بين المدخلات الكلاسيكية الثلاثة، كانت الأرض الحدية – المتاحة لك في الوقت الحاضر – هي الأقل إنتاجية. فنظراً لأن الأرض الأكثر إنتاجية تكون دائماً قيد الزراعة، فلن يكون متاحاً لك للشراء والتطوير إلا الأرض منخفضة الجودة. وغالباً ما تكون المزارع الجديدة أقل إنتاجية من المزارع الأقدم. ولذلك تعد زيادة الاستثمار في الاقتصاد الزراعي لعبة خاسرة. وينطبق قانون تناقص الغلة بقوة على الزراعة[٣١].

يحتفظ العمل الحدي، في المقابل، بإنتاجيته أفضل من الأرض. فطالما توجد قوة عاملة مدربة، سيكون الاستثمار التالي في إنشاء مزيد من المصانع مثمراً مثل الاستثمار الأصلي. وتوظيف أعداد أكبر من العمال يستفيد من فكرة الاقتصادات الضخمة

(٣١) كما هو الحال في كل التعميمات المفيدة، توجد استثناءات، منها أن توسع الولايات المتحدة نحو الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهد إدخال مساحات واسعة من الأراضي الحدية عالية الجودة في عملية الإنتاج.

economies of scale، حيث يكون تدريب مائة عامل أرخص من تدريب عشرة عمال. كما يتمتع العمل الحدي بـ"منحنى التعلم"، ذلك أن العمال المبدعين والمشرفين عليهم وهم يبتكرون إجراءات أفضل للتدريب والعمل يصبحون أكفأ. ولذلك يصبح العمل الحدي غالباً أكثر إنتاجية مع كل عامل جديد. معنى ذلك بالمصطلحات الحديثة أن الاقتصادات الصناعية كثيفة العمالة يمكن أن يزداد حجمها وناتجها سريعاً، وهو ما لا ينطبق على الاقتصادات الزراعية. وتنمو الاقتصادات الصناعية بسهولة، بينما تنمو الاقتصادات الزراعية بصعوبة كبيرة، هذا إن نمت أصلاً.

وأخيراً فقد أصبح رأس المال، بفضل تقنية الاتصالات، مثمراً على نحو متزايد مع زيادة الاستثمار. وتأتي نقطة تصبح الأسواق المالية عندها "كتلة حرجة"، حيث يحدث تحسن جذري في الكفاءة[٤١]. حدث ذلك مع اختراع الهاتف ثم بطاقة الائتمان، ثم الإنترنت، والأشهر من ذلك كله نظام النوافذ لتشغيل الحاسوب، وقد توسع انتشارها جميعاً حتى أصبحت من ضرورات الحياة اليومية.

تعمل أسواق رأس المال بالطريقة نفسها. فمدخرات الأمة تكون عديمة الفائدة إذا حفظت داخل قطع الأثاث أو تحت أرضيات المنازل أو حتى أودعت في نظام بنكي غير كفء، كما كان يحدث في فرنسا في بدايات عصر الصناعة، حيث كانت الريبة في النظام البنكي تعوق تراكم ثروة كبيرة للمشروعات النافعة. تعمل الأسواق على أفضل نحو حين يكون كل من يشترون الشيء المحدد ويبيعونه موجودين في نفس المكان والزمان. ففي هذه الحالة يكون تسعير ذلك الشيء "كفءاً" جداً، حيث إن الجميع سيشترون ويبيعون بالسعر ذاته تقريباً. والمثال الأوضح على ذلك هو الاتجار في تذاكر المسارح والمباريات الرياضية. فعندما تفرض الدولة قوانين صارمة تحرم هذه التجارة، يقوم التجار وزبائنهم بإتمام عملياتهم سراً وفي أماكن كثيرة. ونتيجة لذلك تتفاوت أسعار التذاكر كثيراً. فضلاً عن أن امتلاك التجار دائماً لمعلومات أفضل من المشترين يتسبب في رفع الأسعار. يوصف

هذا السوق بأنه "غير كفء". وقد اكتشفت الجماعات المستنيرة أنه عندما يكون الاتجار في التذاكر مسموحاً به في مكان وزمان محددين، عموماً أمام البوابة الرئيسة وقبل الحدث بوقت قصير، تنخفض الأسعار وتتوحد. والسبب في ذلك واضح: حصر مبيعات التذاكر في فترة قصيرة ومنطقة صغيرة يزيد تدفق المعلومات لكل من المشترين والبائعين، ويزيل بذلك الميزة الطبيعية للتجار. معنى ذلك أن الكأس المقدسة[٣٢] لكفاءة السوق تتمثل في وضع كل مشتري وبائعي الشيء المحدد على مستوى العالم في نفس المكان والزمان، أي نفس المتجر الإلكتروني eBay.

تعمل الأسواق المالية بطريقة مماثلة. فعندما تجتمع أعداد كبيرة من مشتري وبائعي رأس المال في مكان واحد، مثل أرض سوق نيويورك للأوراق المالية، يصبح رأس المال أرخص وأكثر موثوقية، بما يزيد إنتاجية رأس المال[٣٣]. معنى ذلك أنه مع زيادة النشاط المالي تنخفض أسعار الفائدة وتستقر. وتلعب الحكومة أيضاً دوراً أساسيا في عملية الاستثمار بإزالة الريبة حول تكلفة رأس المال وعرضه. سأل الرئيس الأمريكي كلنتون السيد آلان جرينزبان Alan Greenspan في عام ١٩٩٣م "هل تقصد أن نجاح البرنامج وإعادة انتخابي يتوقفان على الاحتياطي الفيدرالي ومجموعة من تجار السندات الحثالة؟"[٤٢] فأجابه: "نعم يا سيادة الرئيس". ويرجع الفضل في انتصار كلنتون الساحق في مدته الرئاسية الثانية عام ١٩٩٦م بدرجة كبيرة إلى نجاح المناورة النقدية لجرينزبان.

ينطبق الموقف نفسه على النقل، حيث إن شحن كميات كبيرة من السلع في سفن كبيرة يكون أكثر كفاءة من شحن كميات صغيرة في سفن صغيرة. وبالمثل في حالة

---

(٣٢) الكأس المقدسة Holy Grail هي الكأس التي شرب منها المسيح في العشاء المقدس والتي راح المسيحيون فيما بعد يجدّون في البحث عنها، وهنا يكمن المجاز في العبارة [المترجم].

(٣٣) عندما أنشأت سوق نيويورك للأوراق المالية مؤخراً نظام التعامل بعد الإقفال after-hours trading، سرعان ما اتضح أنه أقل كفاءة بكثير مما كان يُلاحَظ على الأرض في أثناء ساعات العمل، عندما كان حجم التعاملات التجارية أكبر كثيراً.

الاتصال: فالساعي أو خدمة التلغراف اللذان يرسلان كميات كبيرة من الاتصالات سيقدمان خدماتهما بسعر أرخص من نظيريهما اللذين يرسلان كميات أقل، ويكون الأولان قادرين أيضاً على زيادة حجم تعاملاتهما. والصناعة الأعلى إنتاجية والأكثر قابلية للنمو هي صناعة البرمجيات. فبمجرد أن تتحمل نفقات تطويرها، حتى يصبح التوزيع والبيع مجانياً تقريباً، خاصة إذا كانت توّزع إلكترونياً. وعلى ذلك فإن إنتاجية رأس المال الحدي، التي تعززت بفضل الاتصالات الحديثة عن بعد وتستفيد من عدد متزايد من المشاركين، هي الأعلى بين العوامل التقليدية الثلاثة، يليها العمل الحدي، ثم الأرض الحدية.

المعرفة: المُدخَل الرابع

أدرك الاقتصاديون، قبل عقود، مع اتضاح الزيادة الثابتة السريعة في الثروة والإنتاج الغربيين أكثر فأكثر، أن نموذج المدخلات الثلاثة الكلاسيكي، الذي حاول أن يفسر الناتج الاقتصادي على أساس إنتاجية الأرض والعمل ورأس المال، لا يقدم تفسيراً كافياً لهذه الحالة السعيدة. فاقترح الاقتصادي بول رومر Paul Romer أنه عند نقطة ما تصبح المعرفة العلمية والتقنية عاملاً مهماً في النمو. وأوضح رومر أن المجتمع استفاد من خاصية التقنية التي تجعل رجال الصناعة يتبنون سريعاً أفضل ممارسات رواد الصناعة، وأن الإنتاجية الحدية للمعرفة تنمو مع تراكم المزيد منها، كما في حالة الإنتاجية الحدية الكبيرة لأسواق رأس المال[٤٣]. في عالم رومر لا يحد النمو إلا الخيال الإنساني، ولا يوجد سبب لتقييد معدل النمو عند معدل الإنتاجية التاريخي الحقيقي ٢٪ في دول العالم الصناعية.

المرحلة الأولى: الصيد والجمع

دعونا ندرس الآن كيف اعتملت هذه المُدخلات الأربعة (الأرض، والعمل، ورأس المال، والمعرفة) عبر التاريخ الإنساني. على المستوى الكبير يقسم المؤرخون الاقتصاديون قصة البشرية إلى مراحل أربع: الصيد والجمع، والزراعة، والصناعة، وما بعد الصناعة. يشكل هذا النموذج رباعي المراحل تبسيطاً مخلاً للقصة. ففي البرازيل المعاصرة، على سبيل المثال، تنخرط أعداد كبيرة من الناس في كل الفئات الأربعة للنشاط. وحتى في دول العالم الأكثر تقدماً لا تزال المراحل الثلاث الأخيرة مهمة وحيوية.

على مدار أكثر من ٩٩٪ من عمرنا على الأرض، كان الوجود الإنساني يعتمد على الصيد والجمع. يحتاج هذا النشاط إلى أرض واسعة جداً، حيث يحتاج الإنسان الواحد إلى ميل مربع تقريباً، فضلاً عن أن جماعات الصيد والجمع البدوية سرعان ما تستنزف الحيوانات والنباتات الصالحة للأكل في الموقع، وتكون لذلك في حالة ترحال دائم. ولا تحتفظ هذه الجماعات إلا بالقليل من الممتلكات المادية وتمتنع عن الإقامة الثابتة[٤٤].

ومن حيث المدخلات الاقتصادية الأربعة، كانت جماعات الصيد والجمع تعتمد كلية على الأرض والعمل، وكلاهما تتسم إنتاجيته بالثبات. فمن المستحيل أن تزيد القبيلة عدد الحيوانات أو أشجار التوت عبر آلاف الأميال المربعة التي تستغلها. وكذلك يكون العمل محدوداً، حيث يكون تحسين إنتاجية الصيد والجمع نادراً ومتباعداً. فمع أن زيادة مقدار العمل (عدد الصيادين والجامعين) على قطعة الأرض المحددة يمكن أن يزيد إنتاج الأرض مؤقتاً (كما يقاس بعدد ثمار التوت وحيوانات الجاموس)، فإن الناتج سينخفض سريعاً مع تجريد المنطقة من خيراتها.

لا تحتاج مجتمعات الصيد والجمع إلى رأس المال. وذلك يشل هذه المجتمعات اقتصادياً، لأنها تعتمد على أقل المدخلات الأربعة إنتاجاً – الأرض – ولأن إنتاجية

قوتها العاملة تتحسن ببطء، إن تحسنت. وأخيراً فإن إسهام المعرفة في مجتمع الصيد والجمع يتحسن ببطء شديد هو الآخر. وحيث إن التقدم في "تقنية الصيد والجمع" حدث على مدى زمني طويل جدا، يقاس بآلاف السنوات، فإن حساب معدلات النمو يصبح بلا معنى.

المرحلة الثانية: الزراعة

بدأ البشر، منذ حوالي ١٢٠٠٠سنة، في استيطان الهلال الخصيب وممارسة الزراعة. تعد الزراعة أكثر إنتاجية بكثير من الصيد والجمع، بما يسمح بكثافات سكانية تصل إلى بضع مئات من الأشخاص لكل ميل مربع. وحين احتكت مجتمعات الزراعة بمجتمعات الصيد والجمع، كانت فرصة الأخيرة في البقاء ضعيفة لأربعة أسباب. أولاً: كانت مجتمعات الصيد والجمع قليلة الكثافة، ولا يمكن لشخص واحد لكل ميل مربع أن يتنافس عسكرياً مع المجتمعات الزراعية ذات الأعداد الكبيرة، وفي حالات استثنائية – مثل جزر جاوه وهونشو – كان سكانها يبلغون المئات لكل ميل مربع. ثانياً: طورت المجتمعات الزراعية نخبة صغيرة نسبياً من الجنود المتخصصين في إبادة جيرانهم البدو. كانت هناك كذلك نخبة أصغر من الحكام تخطط لهذه الجهود وتوجهها (مكنت الزراعة من التخصص في الأدوار الاجتماعية الذي أصبح يُعرَف بعد أن تطور بدرجة كافية باسم "الحضارة"). ثالثاً: أدى القرب الشديد بين البشر والحيوانات في المجتمعات الزراعية إلى ظهور كائنات دقيقة مسببة للمرض كالجدري والحصبة. ومع أن سكان المجتمع الزراعي طوروا مناعة لهذه الجراثيم، فقد أثبتت الكائنات الدقيقة أنها قاتلة لجيرانهم من مجتمعات الصيد والجمع. فقد قتل الجدري من الأزتكيين أكثر مما قتلت فيهم أسلحة كورتيز[٣٤]، وفي القرن السابع عشر ربما قتل هذا المرض حوالي عشرين

(٣٤) الأزتكيون Aztecs أحد الشعوب الأصلية في أمريكا الجنوبية، حكمت معظم المكسيك الحالية عبر إمبراطورية ضخمة، بلغت أوجها في الفترة من عام ١٤٢٨م حتى أوائل ١٥٢١م. وكورتيز Cortez فاتح=

مليون أمريكي أصلي في أمريكا الشمالية، قبل حتى أن يحدث الاحتكاك مع الرجل الأبيض[٤٥].

وأخيراً: وربما الأهم من كل ما سبق، أن الكثير من المجتمعات الزراعية تبنت مؤسسة حقوق الملكية الفردية. كان من شبه المستحيل أن تؤسس مجتمعات الصيد والجمع ملكية منفصلة لمناطق واسعة من الموطن البري. ومع أن كثيراً من الأعمال الزراعية المبكرة، إن لم يكن معظمها، كانت مشاعاً، نجد أن المزارعين بدأوا بعد فجر التاريخ المسجل مباشرة في امتلاك مزارعهم وإدارتها فردياً. أصبحت هذه المزارع أكثر كفاءة بكثير من مزارع منافسيهم المشاعيين، وسرعان ما وجدت المجتمعات التي تبنت حقوق الملكية نفسها تمتلك ميزة هائلة ليس فقط في مقابل جيرانها من مجتمعات الصيد والجمع، وإنما أيضاً على المجتمعات الزراعية المشاعية.

يقول الاقتصادي دوغلاس نورث Douglass North الحاصل على جائزة نوبل الذي أطلق على الانتقال الزراعي اسم "الثورة الاقتصادية الأولى" (الثانية هي الثورة الصناعية):

> كان التحول الاقتصادي الأول ثورة، ليس لأنه حوّل النشاط الرئيس للإنسان من الصيد والجمع إلى الزراعة المستقرة، بل لأن الانتقال أحدث تغييراً مهماً في حافز البشر. ينبع التغيير في الحافز عن حقوق الملكية المختلفة في النظامين. فعندما توجد حقوق الملكية المشاعية على الموارد، لا يتولد الحافز لاكتساب تقنية أعلى أو للتعلم[٤٦].

تكمن العقبة الاقتصادية الرئيسة أمام الزراعة في كون الأرض هي المُدخَل الأهم، كما هي في مجتمعات الصيد والجمع. فإذا نما السكان، على سبيل المثال، بمعدل ١٠٪، فلا بد أن يستصلح المزارعون أرضا أكثر للحفاظ على نفس معدل استهلاك

=أسباني قاد حملة أسقطت هذه الإمبراطورية، وضم كثيراً من أراضي المكسيك لحكم التاج الأسباني، واشتهر عنه الإسراف في قتل الأزتكيين والتنكيل بهم [المترجم].

المواد الغذائية لكل شخص. لكن لن تكون هذه الأرض الزراعية الحدية بنفس جودة الأرض الزراعية الحالية، وستكون بذلك أقل إنتاجية. لذلك يجب أن يستصلح المزارعون أرضاً أكثر من ١٠٪ من أجل إطعام الزيادة السكانية. لا يعني ذلك أن التقدم في الإنتاجية الزراعية مستحيل، فقد أدت تقنيات الري والتخصيب المتقدمة والدورة الزراعية والمحراث الذي يجره جوادان إلى زيادات كبيرة في المحصول لكل هكتار. لكن قروناً كثيرة فصلت بين هذه الابتكارات. فإذا كانت غلة المحصول، كما اقترح المؤرخون، تضاعفت أربعة أضعاف فيما بين عام ١٠٠٠م وعام ١٥٠٠م، فإن ذلك يمثل معدل نمو قدره ٠.٢٨٪ سنوياً فقط على مدار تلك الفترة. وبين هذين التاريخين أجبرت الزيادات السكانية الناس على زراعة أراضي حدية رديئة الجودة، بما ألغى معظم، إن لم يكن كل، الزيادة في الإنتاجية الزراعية التي حدثت في نصف الألفية المشار إليها. ولذلك ظل مستوى معيشة المجتمعات الزراعية الخالصة جامداً نسبياً.

أجل لقد أحدث التحول إلى الاقتصاد الزراعي قبل حوالي ١٢٠٠٠ سنة زيادة كبيرة في سكان العالم، ونعم أدى التحسن المتواضع اللاحق في التقنية الزراعية إلى زيادة السكان. لكن هذا التقدم لم ينتج تحسناً مستداماً في مستويات المعيشة. فحتى وقت متأخر، تحديدا منتصف القرن الثامن عشر، كانت المجاعة حدثاً اعتيادياً في أوروبا، وفي القرن التاسع عشر قتلت المجاعة الكبرى[٣٥] أكثر من مليون مواطن أيرلندي.

تحققت بعض "المكاسب المعرفية" في فترة القرون الوسطى، لكنها كانت متفرقة.

---

(٣٥) المجاعة الكبرى Great Hunger، أو مجاعة البطاطس الأيرلندية، فترة امتدت من عام ١٨٤٥م إلى ١٨٥٢م ضربت أيرلندا فيها مجاعة عامة وانتشرت الأمراض والهجرة، مات فيها حوالي مليون إنسان، وهاجر مليون آخر، مما قلل عدد سكان أيرلندا بنسبة ٢٠٪، وكان السبب المرجح وراءها مرض يُعرف بآفة البطاطس، أتلف محصول البطاطس في كل أوروبا في العقد الخامس من القرن التاسع عشر، لكن تأثيره كان أكبر على أيرلندا التي كان ثلث سكانها يعتمدون بالكامل على البطاطس في غذائهم، فضلاً عن عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية أخرى [المترجم].

و"المزارعون المحسّنون" improving farmers في إنجلترا القرن الثامن عشر الذين كانوا يسعون بثبات لتطبيق أحدث الطرق الزراعية، كانت تفصلهم قرون كثيرة عن القرون الوسطى.

كانت تلك هي الوضعية المحزنة التي وصفها مالتوس: عالم يسحق نمو السكان فيه التحسن البطيء في الناتج الزراعي[٤٧]. وهنا تقدم "الكوابح الإيجابية" المالتوسية الكلاسيكية - المجاعة والطاعون والحرب- الحل الحتمي لعدم التوازن بين الحاجة والطعام.

المرحلة الثالثة: التصنيع

بحلول عام ١٥٠٠م تقريباً سمح التحسن المتواضع في التقنيات الزراعية، مقترنا بالبوادر الأولى لحقوق الملكية وأسواق رأس المال وتقنية النقل، لأعداد كبيرة من العمال بترك المزرعة للعمل في التصنيع. كان التصنيع في شمال وجنوب أوروبا يعني شيئاً واحداً: المنسوجات. ففي إيطاليا كان النساجون المهرة يحوّلون الحرير وأنسجة غريبة أخرى إلى ملابس ممتازة. وكان الإنجليز يشحنون الصوف الخام إلى بيرغندي (هولندا وبلجيكا الحديثتين وشمال فرنسا تقريباً)، حيث كان الصناع المهرة يغزلونه وينسجونه في شكل قماش ممتاز. وكذلك تطور بناء السفن والآلات تدريجياً. ومع أن الصينيين كانوا يصدّرون المنسوجات والخزف منذ فترة طويلة، فإن هذه الصناعات لم تكن كبيرة بما يكفي للسماح لنسبة كبيرة من سكان الصين بالإفلات من الزراعة، على نحو ما حدث في أوروبا.

لا يحتاج التصنيع إلى أرض واسعة، فالعاملان المحدِدان له هما العمل ورأس المال. والعمل، مع أن قانون تناقص الغلة يحكمه من حين لآخر، ليس حساساً لزيادة

حجم المشروع مثل الأرض، ذلك لأن إنتاجية العمال عموماً لا تتأثر كثيراً باستئجار المزيد من العمال. وفي العصر الحديث يمكن أن تزيد إنتاجية العمل مع النمو، حيث إن الكثافة المتزايدة للعمال ومواقع العمل تسهّل الاتصال بين المنتجين. ومثال ذلك هو خطوط تجميع السيارات بديترويت ومصانع الشرائح الإلكترونية بوادي السيلكون.

يتميز التصنيع أيضاً بالكثافة من حيث رأس المال. فعندما تتقادم المصانع، يتحتم بناء أخرى جديدة بنفقات كبيرة. وزيادة الكثافة السكانية تولد أسواقاً مالية أكثر كفاءة، ومع النمو يصبح تمويل التصنيع أسهل أكثر فأكثر. وأخيراً تكتسب المعرفة في المجتمع الصناعي اعترافاً بأنها الطريق إلى الثروة، مع التطور والانتشار السريع "لأفضل الممارسات"، بما يرفع ناتج الجميع.

في وقت ما من القرن التاسع عشر، ظهرت إلى الوجود في أوروبا وفي الولايات المتحدة "الحلقة المتصاعدة"، التي مؤداها أن التقدم في التقنية أحدث تحسنا في الإنتاجية، أنتج بدوره ثروة متنامية، أنتجت هي نفسها رأس مال أكثر، ليدفع الأخير إلى مزيد من التقدم التقني. ومع توظيف الاقتصادات الصناعية المتزايد لمُدخلات معرفية ومالية عالية الإنتاجية، أصبح النمو يدعم نفسه ذاتياً ولا سبيل لإيقافه.

"شيّدها وستأتي الأخرى في أثرها!"

افتتنت أجيال كاملة من الاقتصاديين بالنمو الاقتصادي السريع للمجتمعات الصناعية. جادل هؤلاء بأن المفتاح إلى التنمية الاقتصادية كان يقيناً التصنيع نفسه. وكأن مجرد بناء المصانع والبنية التحتية الحديثة وتدريب العمال سيؤدي حتماً إلى "الانطلاقة الاقتصادية" القوية[٤٨]. لكن ذلك للأسف ليس صحيحاً، كما يثبت التاريخ الحديث المؤسف للتصنيع السوفيتي ومشروعات البنية التحتية العملاقة بالعالم الثالث التي

شُيّدت بمساعدات خارجية. فالرخاء يحتاج إلى ما هو أكثر من المصانع والسدود والسكك الحديدية. ("كلما تغيرت الأشياء أكثر، ظلت كما هي"، هكذا يقول المثل. سنبحث في الفصل التاسع فشل التصنيع من أعلى في الإمبراطورية العثمانية بالقرن الثامن عشر).

تصل الأمة المرحلة الصناعية من التطور، ليس نتيجة للتصنيع في ذاته، وإنما بفضل وجود المؤسسات التحتية الحيوية المتمثلة في حقوق الملكية والتقصي العلمي والأسواق المالية. وما أن تصل الأمة تلك المرحلة حتى تكون قد كسرت أغلال الفقر. وإن شئت قل إن النمو الاقتصادي يصبح مشفراً في ثقافتها. وحتى عندما تعاني أمثال هذه الدول دماراً هائلاً للتجليات المادية الخارجية لاقتصاداتها، كما حدث لدول المحور في الحرب العالمية الثانية، فإنها تتعافى سريعاً وتتجاوز رخاءها السابق.

بل إن تآكل حقوق الملكية أسوأ من الحرب بكثير. ففي القرن العشرين تعافت ألمانيا الشرقية مرتين في غضون بضعة عقود من التأثيرات المادية لدمار الحربين العالميتين. وسوف تأخذ بيد أجيالها للتعافي من الشيوعية.

المرحلة الرابعة: المجتمع ما بعد الصناعي

انبثقت الخطوط العريضة لمرحلة أخرى في التطور الاقتصادي الإنساني- ما يسمى المجتمع ما بعد الصناعي - وئيدا في الجزء الأخير من القرن العشرين. في المجتمع ما بعد الصناعي يفسح التصنيع المجال لتوفير الخدمات. يحتاج الاقتصاد ما بعد الصناعي لمستوى من العمل والأرض أقل من سلفه الصناعي. وبينما يحتاج هذا النظام الجديد نفس قدر رأس المال الذي يحتاجه النظام الصناعي القديم على الأقل، فإن شهيته لمُدخَل المعرفة نهمة، بالدرجة الأولى في شكل التجديد التقني. فبينما كانت شركة الهاتف توظف جيوشاً من الموظفين قبل أربعين عاماً، يقوم بعملها الآن عدد من

الفنيين أقل كثيراً، وتخدم الجمهور بشبكات أقمار صناعية وخلوية وألياف ضوئية غالية جداً. وحيث إن أسواق رأس المال والقاعدة المعرفية هما الأكثر "قابلية للتوسع" بين عوامل المُدخَلات الأربعة، ستحافظ المجتمعات ما بعد الصناعية كثيفة المال والمعرفة على أعلى معدلات النمو.

على أن العالم الغربي لم يصل إلى هذه الحالة المواتية بين عشية وضحاها. فقد استغرق الأمر معظم الألفية الثانية لتصحيح قمع الإقطاع لحقوق الملكية، والتخلص من القبضة الفكرية الخانقة للكنيسة، والتغلب على قلة أسواق رأس المال، ومعالجة غياب النقل والاتصال الفعالين. وفقط مع اكتمال هذه المهام الأربعة، أصبح بمقدور مواطني المجتمعات الصناعية وما بعد الصناعية التمتع بثمار كدهم.